دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

الرؤية الإلهية للأعياد الكنسية

- ٢ -

الصوم الأربعيني المقدس

الأب متى المسكين

الصوم الأربعيني المقدس

- الأربعين المقدسة هي موسم عودة النفس إلى مكان راحتها الحقيقية، فيه تظل الكنيسة بألحانها على طول الأربعين يوماً تُنادي النائمين والتائهين في طرق الخطية وشعاب الضلال أن استيقظوا واستنيروا فهذا زمان التوبة.
- وفي هذه الفترة المقدسة نقدّم هذه المقالات عن الصوم الأربعيني المقدس، لكي تنكشف طبيعة هذا الصوم ومقصد الكنيسة من وراء تقديمه للمؤمنين ليصوموه قبل أسبوع الآلام، وليعبروا به إلى رؤية مجد قيامة الرب.

الثمن ٤ جنيهات

كتاب: الصوم الأربعيني المقدس.
المؤلف: الأب متى المسكين.
من الطبعة الأولى إلى الطبعة الرابعة: ١٩٧٠، ١٩٧٦، ١٩٨١، ١٩٩٤، ١٩٩٨.
الطبعة الخامسة: ٢٠٠٧.
مطبعة دير القديس أنبا مقار – وادي النطرون.
ص.ب ٢٧٨٠ – القاهرة.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٤/٣٣٣٤
رقم الإيداع الدولي: ISBN 977-240-050-2

يُطلب من:

دار مجلة مـرقس

القاهرة: ٢٨ شارع شبرا – تليفون ٥٧٧٠٦١٤

الإسكندرية: ٨ شارع جرين – محرم بك ت: ٤٩٥٢٧٤٠

أو من: مكتبة الدير
أو من خلال الموقع على الإنترنت:
www.stmacariusmonastery.org

المحتويات

بمناسبة صوم يونان المبارك
وتباشير موسم الأربعين
المقدسة

يونان، ونينوى، ونحن (*)

ليس عبثاً وضعت الكنيسة هذا الصوم المبارك في هذا الوقت بالذات، فترتيب الكنيسة دائماً مُلهَم.

تعلمون أننا قادمون على الصوم الأربعيني المقدس. والكلام هنا مركَّز وموجَّه. فكلمة «الأربعين» ذات أهمية خاصة. ذلك لأننا قادمون على موت يجوزه المسيح عن البشرية كلها، أو هو استبدال موت بهلاك، ذلك لأن البشرية كلها كانت في حالة هلاك أو مشرفة على هلاك وإبادة لا تقل عن إبادة الطوفان(١)، وذلك بسبب تعاظم سلطان الخطية.

وهذا ما حدا بالابن المبارك أن يترك مجده ويلبس بشريتنا ويتألم لكي ينقذ البشرية. لقد قدَّم نفسه للموت عوضاً عن هلاك البشرية ثم قام، فصار موته وقيامته مصدر خلاص وتوبة لا تنتهي. صار آية لكل مَنْ يريد أن يرث ــ لا أن يرى الإنسان بعد آية ــ بل يرث السماء نفسها. فهذا هو موت المسيح وقيامته. وهذا هو الصوم الأربعيني الذي صامه الرب عن البشرية كلها، ليوفِّي عنها كل نقص في نسك أو في صوم.

والكنسيون منكم يتذكرون أننا لا زلنا نردد ألحان عيد الظهور الإلهي، أي التعميد الذي لا يتم حسب الطقس إلا بالتغطيس الكامل تحت سطح الماء(٢)، أي في عمق

(*) ملخص عظة أُلقيت في كنيسة القديس أنبا مقار في صوم يونان المبارك.
(١) ٤٠ يوماً.
(٢) ٣ مرات.

المياه ــ أو بتعبير قصة يونان ــ نزل إلى بطن الماء. لذلك لما خرج المسيح من الماء اعتُبر ذلك مسحة خدم بها، تلك التي تقدم بها للدخول في صوم الأربعين يوماً، ثم إذا تجاوزنا الزمان أو التزامنا بالطقس الكنسي ندخل مباشرة في أسبوع الآلام ثم الموت فالقيامة.

وهكذا يأتي صوم يونان قبل الأربعين المقدسة حاملاً معاني ورموزاً كثيرة ما بين الغطاس والموت على الصليب!!

نعود إلى يونان. ونسأل: مَنْ هذا المدعو يونان؟

إنسان نبي، من العبرانيين، أتاه صوت الرب هكذا:

+ «وصار قول الرب إلى يونان بن أمتاي قائلاً: قم اذهب إلى نينوى المدينة العظيمة...» (يون ١: ١و٢).

فقام يونان، يقول الكتاب أنه «قام وهرب» إلى ترشيش من وجه الرب، وذهب وهاج البحر.

السفر لم يوضح أكثر من هذا، وطبعاً إن أي عدم توضيح في الأسفار أو الإنجيل ليس معناه قصوراً أو خللاً في التدوين ولا حتى سهواً، ولكنه فسحة للفكر العميق وللنفس المتأملة، لتستوعب الأشياء التي لا يمكن أن تُكتب في سطور. وأتمنى أن يكون هذا الكلام له صدى عند السامع، لأن كثيرين يشتكون من غموض بعض المواضع في العهد القديم؛ بل وفي الإنجيل أيضاً.

صوت الرب يقول ليونان: اذهب و بشِّرها لأن شرها صعد أمامي. فهرب ونزل في بطن الماء و بقي فيه ثلاثة أيام، و بالتعبير الكتابي، المسيح نزل إلى الهاوية ثلاثة أيام وثلاث ليالي. و يونان نزل إلى العمق، في بطن الحوت، ثلاثة أيام وثلاث ليالي، وبتعبيره هو قال: «صرختُ من جوف الهاوية» (يون ٢: ٢)، وهكذا يبدو سفر يونان تطبيقياً ورؤيوياً، وكل سطر وكلمة فيه تشير إلى المسيح بصورة قوية جداً. وهنا يمكن اعتبار يونان بمثابة يوحنا المعمدان في العهد الجديد الصارخ ليعد طريق الرب.

يونان رمز حيٌّ بشخصه، يمثل المسيح. عماد المسيح دفع به إلى الأربعين المقدسة،

والأربعين إلى الصليب ثم القيامة. تماماً كما نزل يونان الماء ثم ذهب لنينوى كارزاً لها بالتوبة قائلاً لها: إن المدينة **ستهلك بعد أربعين يوماً** ــ كأنما هنا إشارة خفية أن الأربعين يوماً هذه مهمة في تحديدات الله ــ وكأنها وفاء أقصى مدة محددة للهلاك(٣). لكن الرب وفَّاها وقضاها في صومه الأربعيني عن البشرية كلها.

أما هروب يونان، فكأنه يستصعب الدعوة، لكنه بعد أن نزل في الماء وظل فيها ثلاثة أيام حدث له شيء ما. لأنه بعد ما ألقاه الحوت على الشاطىء، قال له الرب مرة ثانية بنفس الألفاظ الأولى: «قم اذهب إلى نينوى المدينة العظيمة ونادِ لها بالمناداة التي أنا مُكلِّمُك بها» (يون٣: ٢)، فانصاع يونان وكأنما تجدد فكره بعد أن اعتمد لنينوى ثلاثة أيام في العمق!!

هنا شيء سري حدث. **وكأنما النزول في الماء ــ معمودية يونان ــ هو اجتياز الموت والقيامة لنينوى.**

يا للعجب على الإشارات البليغة، يا للكنيسة التي تستطيع باللمسات الخفيفة أن تحدد صوماً محدداً أو عيداً معيناً. تحديدات كلها إلهام ورؤيا لِمَنْ يريد أن يسمع أو أن يرى، وليس كالكتبة والفريسيين الذين قالوا له «نريد أن نرى آية»، متغاضين عما حدث من قبل.

وضعت الكنيسة هذا السفر أمام أعيننا في هذه الأيام لنستطيع أن نستوعبه لأنفسنا: أولاً في يونان، وثانياً في نينوى. لأن ليونان ونينوى رسالتين لنا في حياتنا. فيونان يضع لمسات صورة المسيح القادم من بعيد. ونينوى تبكتنا بشدة: «رجال نينوى سيقومون في الدين مع هذا الجيل ويدينونه، جيل شرير وفاسق يطلب آية ولا تُعطى له آية إلاَّ آية يونان النبي» (مت ١٢: ٤١و٣٩).

«**هذا الجيل**»، لا يقصد به الوحي زمن جيل المسيح فحسب ــ كما يقول أغلبية

---

(٣) الطوفان.

الشراح ـ ولكنه هو هذا الجيل أي كل جيل شرير وفاسق. كل جيل فيه الشرير والفاسق، فهو «هذا الجيل». أما جيل المسيح الذي هو جيل الرسل فهو جيل مستمر فينا وبنا حتى الآن. وأنتم تسمعون الكاهن يقول: «اذكر يا رب كنيستك الواحدة الوحيدة المقدسة الجامعة الرسولية»، ثم تسمع في المجمع أسماء البطاركة حتى آخر بطريرك. فالكنيسة ممتدة من المسيح والرسل إلى هذا اليوم. فهو جيل واحد، هو جيل المسيح، وهذا اسمه. الجيل الشاهد للمسيح حتى آخر يوم في تاريخ البشرية، جيل ممتد، الجيل الطيب القديس الطاهر.

أما الجيل الآخر فهو جيل قايين، وجيل يهوذا، الجيل الصالب، هو أيضاً ممتد حتى هذا اليوم، فيه يهوذا وفيه الصالب أيضاً.

«جيل فاسق وشرير»، قد تبدو هنا قسوة في كلام المسيح، ولكن ليس الأمر كذلك. هو جيل فاسق وشرير لأنه زاغ عن الله. وإذا سمعت عن «الفسق والشر» في الإنجيل فلتفهم أنه يقصد الوضع الروحي وليس الجسدي (لأن الوضع الجسدي يمكنه بطعنة في الضمير الحي من سيف كلمة الله أن يحوّل أشر الناس إلى القداسة). الشر الروحي، هو أن نعبد غير الله، أن نرتمي في أحضان الشيطان، هذه هي الخيانة الزوجية. لأن المسيح اتخذ الكنيسة لنفسه عروساً، حسب نفسه عريساً للكنيسة: «لأني خطبتكم لرجل واحد لأُقدم عذراء عفيفة للمسيح» (١ كو١١: ٢).

«جيل فاسق وشرير يطلب آية»، هل يريد من الله أن يرسل له ناراً من السماء؟ أو يرسل له مناً من السماء يأكله ويشبع؟ ألم يقدم لهم الطعام في معجزة إكثار الخمس الخبزات والسمكتين (إنجيل اليوم الثالث من صوم يونان)؟ ولكن لننتبه لأنفسنا جداً لأن الآية لا تزيد الإيمان، ولكن الإيمان بحد ذاته آية!! تذكرون قول الإنجيل إن المسيح «لم يصنع هناك (في الناصرة) قوات كثيرة لعدم إيمانهم» (مت١٣: ٥٨). لن يستطيع المسيح أن يعمل لك آية في حياتك إن لم يسبقها إيمان.

«ولا تُعطى له آية إلا آية يونان النبي»، جيل فاسق شرير، وخطيته شنيعة جداً. لن تنفعه الآيات من السماء. ولكن آيته الوحيدة هي التي تقيمه من موت

الضمير، وآيته هي آية يونان النبي، آية الموت لأن يونان في عُرف المنطق والعلم أنه كان يتحتم أن يموت في بطن الحوت، يونان مات، نعم مات، والرب أقامه، ولكن لِمَنْ كان الموت؟ ما أجمله موتاً ذلك الذي نموته كل يوم من أجل الآخرين! ما أجملك يا يونان يا نبي الفداء وأنت تموت ثلاثة أيام بلياليها لتكفِّر عن خطيتك وخطية نينوى العظيمة!!

الشراح الغربيون يقولون عن سفر يونان أنه سفر خرافي، أما المتساهلون منهم فيقولون عن يونان أنه يمثل الابن الأكبر (في مَثَل الابن الضال)، لأن نينوى لما خلصت حزن يونان وصار مثل الابن الأكبر الذي لم يُرِدْ أن يدخل البيت.

لا، لم يحدث هذا، الحقيقة العميقة هي أن يونان تمنَّع من الذهاب لنينوى لئلا يبشرها بالخراب!! ولأنه يعلم يقين العلم أن الله طويل الأناة بطيء الغضب، وسيصفح حتماً في النهاية. لذلك هرب يونان لئلا يواجه محنتين: محنة التبشير بالخراب، وهو عسير كل العسر على النفس الوديعة؛ ومحنة رجوع الله عن غضبه، فيظهر يونان وكأنه يسخر من شعب غريب. ولكن أين يهرب يونان من وجه الله؟ فالله دائماً يطارد الخادم الهربان. فكل إنسان يمكن أن يهرب من وجه الله، إلاَّ من سمع صوته وحمل نيره وقَبِلَ اسمه القدوس.

في الفكر القبطي يونان ليس هو الابن الأكبر الذي حزن على خلاص نينوى، ولكنه مثال المسيح. هو نبي الفداء المبدع، لا يقلُّ بل ربما يزيد عن كل الأنبياء في العهد القديم، رقة ورهافة، لا يماثله في هذه الرهافة والرقة إلاَّ نبي واحد مظلوم مثله، هو أيوب.

يونان لم يحتمل أن يكون كارزاً بالخراب. وفي إنجيل لوقا إشارة لطيفة جداً ولكنها سرية للغاية، تكشف عن حدوث صلة توبيخ لأهل نينوى بسبب المخاطرة العظمى والموت المحقق الذي تعرَّض له يونان من أجلهم: «وكما كان **يونان آية لأهل نينوى** كذلك ابن الإنسان أيضاً لهذا الجيل» (لو١١: ٣٠).

إذاً، فقد بلغ أهل نينوى أن يونان عبر محنة الموت في داخل بطن الحوت ثلاثة

أيام، ثم قام من أجل خلاصهم ؟؟؟

هنا يقصد إنجيل لوقا أنه كما كان يونان بنفسه (وليس بكرازته فقط) آية لأهل نينوى، هكذا يكون ابن الإنسان **بنفسه** آية لهذا الجيل، أي بموته وقيامته.

من الصعب جداً، يا إخوة، أن نتكلم كثيراً عن ضغطة الموت على مدى ثلاثة أيام بلياليها التي جازها يونان، ولكننا نعرفها أكيداً في تطبيقها على المسيح لما مكث ثلاثة أيام وثلاث ليال في الهاوية ثم قام: «سبى سبياً وأعطى الناس عطايا (أي كرامات)» (أف ٤: ٨)، قام «ونفخ (في وجه تلاميذه) وقال لهم ... مَنْ غفرتم خطاياه غُفرت له» (يو٢٠: ٢٢و٢٣). أعطى الحِلّ والبركة على الأرض لتدوم إلى أبد الآبدين، إذ نسمع الكاهن يقول: «كما أعطيت الحلّ للتلاميذ ليغفروا الخطايا...»، هكذا دام هذا الحلُّ الذي يفك كل الخطايا.

هكذا قام يونان وكرز لنينوى، ليحل عنهم بضيقة موته ثم بكرازته غضب الله!! ويبدو أنه قال لهم ما حدث له.

وأما من جهة نينوى المدينة العظيمة، فنحن آتون هنا لمنظر من المناظر الرهيبة، إذ بمجرد أن سمع الملك بما حدث ليونان، وبما نادى به، قام عن كرسيه الملكي وخلع ثيابه وفخفخته وجماله وفخره الكاذب، ولبس المسوح، والشعب كله لبس المسوح ــ والمسوح ثوب من شعر المعزى خشن الملمس جداً ــ وأعطى الملك أمراً أن يُرفع الطعام عن كل إنسان كبيراً كان أم صغيراً حتى الرضيع على صدر أمه ــ يا للهول ــ وعن البهائم كلها، وهنا وكأنما الخليقة كلها تتمثل في قصة توبة نينوى. وكان ذلك إلى ثلاثة أيام.

مدينة فيها "واحد على ثمانية" مليون نسمة تتوب كلها ويعفو الرب عنها من أجل توبة جماعية ناشطة وتدبير متقن لهذا الملك النصوح الواعي الذي استطاع بحكمته أن يرفع حكم الموت عن شعبه؛ يا للرعاية ويا لحكمة الراعي!!

ثم ما هذا الحضن المتسع يا الله؟ إن هذا عجب كبير حقاً!! مدينة وثنية تؤمن بالله بكرازة واحدة؟

نعم، ليس بآية من السماء ولا من الأرض تتوب البشرية أو يُعفى عن إثمها، بل بالاتضاع والصوم والصلاة وتذلل القلب لدى الله القدير!!

آه لو علم كل خاطىء هذا، ما استكثر خطاياه أبداً على عفو الله. لو علمت الكنيسة ما ينبغي أن تكون عليها من توبة جماعية، لجلست مع أبنائها في هذه المسوح وفي تراب المذلة إلى أن تجتذب لنفسها عفواً من السماء، ولكانت أزمنة الفرج تأتي من السماء سريعاً!! كما قال بطرس الرسول (أع ٣: ١٩).

يا أحبائي، إن تعطلت أزمنة الفرج فالعيب هو منا، نينوى كانت تسير إلى الهاوية والهلاك أكيداً وسريعاً، ولكن بوقفة شريفة شُجاعة أمينة على قدر الدعوة وقدر التهديد استطاعت أن تجتذب لنفسها عفواً من السماء.

ماذا يعوزك أيها الخاطىء؟ أيعوزك المسوح؟ أيعوزك التراب؟ ماذا يعوزك؟

لو كانت التوبة بذهب وفضة، لو كانت تستلزم سلماً عالياً نطلع به إلى السماء، لو كانت تستلزم منا جهداً نفسانياً أو عقلياً أو جسمانياً أو حكمة فائقة أو علماً زاهراً، لكي نحدر المسيح من السماء أو نصعده من الهاوية؛ لقلنا إن التوبة صعبة وشاقة. ولكن ملك وشعب ونساء وأطفال و بهائم نينوى عرفت طريقها سريعاً إلى النجاة. فما بالنا نتعطل نحن، وما بالنا نذهب يميناً و يساراً ونستشير الكبير والصغير، والخلاص أمامنا و بابه مفتوح، والذين دخلوا منه كثيرون، ومن كل شعب ولسان وأمة!!

وها هي نينوى تضع لنا نموذجاً لتوبة بسيطة قادرة بعنفها أن تفتح أبواب السماء وتحدر عفواً شاملاً بلا أي استثناء للمدينة بأسرها، قيل عنها في الكتاب أنها لا تعرف شمالها من يمينها!!

يا إخوة، نحن قادمون على الأربعين المقدسة، يعوزنا قلب كقلب ملك نينوى وشعب نينوى. أما مجرد ذكر البهائم الصائمة وهي خائرة على مذاودها ففيه توبيخ لنفسي، لأني أرى في نفسي وحوشاً ضارية تتعالى على غيرها كما يعلو الأسد على الغزال. كم فيكِ يا نفسي من غرائز تحتاج أن تُذلَّل بالجوع والمسوح؟ منظر نينوى

وبهائمها واقفة على المذاود تئن، مرعب لشهواتي وملذاتي. الثيران وقعت من الجوع خائرة. وكم فيكِ من هذا يا نفسي يا مدينة الله! ما أجملكِ يا نفسي وأنتِ جالسة في المسوح والتراب متشبهة بنينوى!! جيد لكِ يا نفسي في هذه الأربعين المقدسة أن تَرْبُطي حواسكِ كلها، البهيمي منها والوحشي، ولا تفتكري أنكِ بنت المدينة العظمى التي تعرف شمالها من يمينها، لأن الخطية لا يتعالى عليها إلاَّ مَنْ ذاق ما ذاقته نينوى!!

اليوم يا أحبائي، أكشف أمامكم سر السماء بلا ستار، بلا حجاب؛ ملك يترك عرشه، وينتزع الخلاص، وينتزع العفو السمائي، بتوبة جميلة رائعة استطاع أن يحصل عليها وهو في التراب والرماد.

ثقوا، إن ساعات الخلاص وأيام الرجاء لا تأتي جزافاً أبداً. إن كنت تريد خلاصاً سريعاً، إن كنت تريد أزمنة فرج، فاليوم تعلَّم من درس نينوى، وهو درس للأجيال كلها: «جيل شرير وفاسق يطلب آية ولا تُعطى له آية إلا آية نينوى».

آية نينوى لا تقل إطلاقاً عن تفتيح عيني الأعمى، وعن إطعام الجائعين بخمس خبزات وسمكتين، وتحويل الماء إلى خمر.

آية نينوى فاقت كل آية إلا موت المسيح وقيامته، ولكن الجديد في آية نينوى أنها تابت بمناداة نبي، والآن الصوت الذي ينادينا أعظم من كل نبي.

لأن يونان نادى بالموت أو التوبة، ولكن المسيح يقدم لنا موته قوة حية محيية قادرة أن تقيم من الخطية والموت!!

اليوم يا أحبائي يوم نينوى ونبيها الرقيق المشاعر، النبي الفادي القائل «هذه خطيتي» حينما هاج البحر، ولم يقل «هذه خطية نينوى».

يونان هنا ينادي كل خادم، كل واعظ، كل كاهن، كيف يرى خطية شعبه ومدينته، ويرى في آلامه وحزنه وضيقه، بل وموته فدية لأولاده.

وصلَّى يونان إلى الرب إلهه من جوف الحوت وقال:

+ «دعوت من ضيقي الرب فاستجابني، صرخت من جوف الهاوية فسمعت

صوتي، لأنك طرحتني في العمق في قلب البحار. فأحاط بي نهر (نهر الموت). جازت فوقي جميع تياراتك وجميع لججك، فقلت قد طُردت من أمام عينيك. (إلهي إلهي لماذا تركتني؟). ولكنني أعود أنظر إلى هيكل قدسك. (وفي اليوم الثالث أقوم). قد اكتنفتني مياه إلى النفس (هذا المزمور يُقال في يوم جمعة الصلبوت). أحاط بي غمر. التف عشب البحر برأسي. نزلت إلى أسافل الجبال، مغاليق الأرض عليَّ إلى الأبد. ثم أصعدت من الوهدة حياتي أيها الرب إلهي، حين أعْيَت فيَّ نفسي ذكرت الرب فجاءت إليك صلاتي إلى هيكل قدسك. الذين يراعون أباطيل كاذبة يتركون نعمتهم. أما أنا فبصوت الحمد أذبح لك. وأوفي بما نذرته. للرب الخلاص» (يون ٢: ٢-٩).

هكذا تكون صلواتنا في ضيقاتنا. اشْتَكِ للرب فقط، شكوى الممنونين «جازت عليَّ آلامك يا رب. أجزتني المحنة وأمررتني تحت العصا. المرُّ في حلقي. دخلت المرارة إلى قلبي وإلى نفسي». وكما يقول النبي: «توجعني جدران قلبي» (إر٤: ١٩)، بتعبير عجيب، كلها أنين الشكر وشكوى الحمد.

إن صلاة يونان هي المزامير الجديدة للسائرين في طريق الجلجثة والتي حتماً تردد قرارها في السماء كل الأرواح المبررة المكمَّلة في المجد. إنها السلم الجديد الذي نرتفع عليه لكي نطل خلسة إطلالة سريعة على المجد المعد!!

نعم، هكذا يُغتصب ملكوت السموات! بصلاة كصلاة يونان وهو في عمق الهاوية.

اليوم يا أحبائي، هو يوم التوبة الغاصبة لحقوق القديسين وميراث ابن الله.

اليوم، مفهوم جديد لمعنى الكرازة بالبذل حتى الدم.

اليوم، دعوة للكارز ليسلك طريق النجاة لنفسه وشعبه، للراعي والرعية.

هذه نينوى تعطينا صورة حاسمة لكل دقائق ومعنى استرضاء وجه الله!!

يا رعية الله، صغيرها وكبيرها، شيخها وطفلها، مريضها وسليمها، هذه نينوى أمامنا آية.

و يا كارزي المسكونة ، و يا واعظي الكنيسة ، هوذا يونان لكم اليوم مثلٌ يُحتذى ، كيف كان وماذا صار. فيونان قَبلَ أن يدخل محنة الموت والثلاثة الأيام بلياليها ما كان نافعاً لا لنينوى ولا لنفسه ، حيث كان سيذهب إلى ترشيش ليأكل الخرنوب مع الخنازير.

وها هوذا يونان بعد أن صلَّى من عمق التجربة وأهوال الموت يرينا كيف جاز التجربة حتى النهاية ، وصار يونان كارزاً بشبه المسيح ، وحُسب له موته بشبه فداء . وهكذا تكرَّم يونان بهذه التجربة فصار هو النبي الوحيد الذي أخذه المسيح ليضعه نموذجاً لموته وقيامته !! وآية للتائبين !!

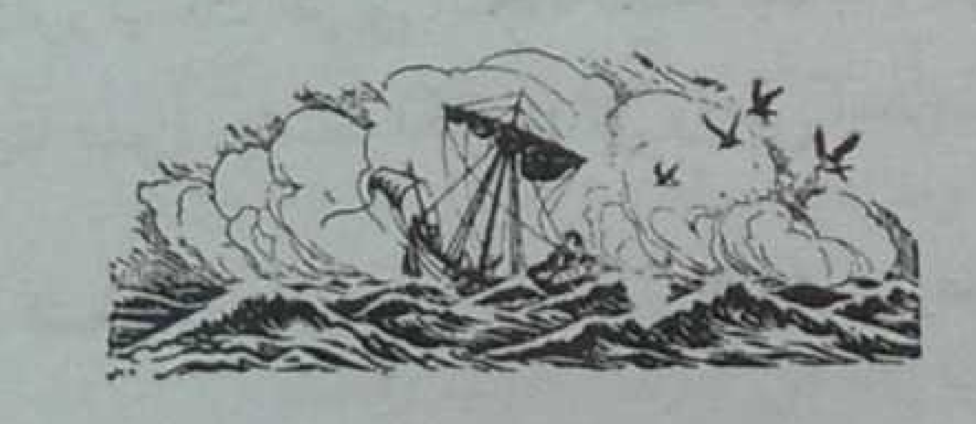
صلاة

يا رب الفداء الحقيقي الذي منك نستمد كل معنى وكل قوة للفداء ، أعطِ يا رب روح الفداء لرعاة شعبك ، الكبير منهم والصغير ، العجوز والحدث ، المطران والكاهن ، أعطهم روح يونان يا رب ، وأما رعيتك فأعطها طاعة كطاعة نينوى لمليكها لقبول مرارة التوبة لتنجو ولا تُدان مع العالم ، وليؤمن شعبك بالحق أن الرب قادر أن يميت و يُحيي.

فيا شعب الله اطلبوا الحياة بسيرة التوبة ولا تسعوا بسيرة أهل العالم في طريق الموت.

يا رب أعطِ رعيتك جميعاً روحاً كروح نينوى في هذا اليوم ليتوب شعبك، وتتوب كل مدن ممالك الأرض إليك، ولتأتِ أزمنة الفرج سريعاً من عندك على العالم. آمين.

(فبراير ١٩٧٩)



الصوم الأربعيني

تاريخ الطقس

في هذا المقال لمحة عن الطقس في وضعه الأصيل. حيث يعالج الكاتب فيه التاريخ الطقسي لصوم الأربعين وقد سبق أن عرض قيمته الروحية واللاهوتية في المقال السابق.

هو من أهم الأصوام وأقدسها وأقدمها . ولا يفوق الصوم الأربعيني أهمية إلا صوم أسبوع البصخة المقدسة .

ومذكور في كتاب مصباح الظلمة عن هذا الصوم :
[وقد كان الآباء الرسل القديسون الأطهار ومن تبعهم من المؤمنين يصومون الأربعين المقدسة ثاني يوم الغطاس ، وهو ١٢ من طوبة . و يعيدون للفصح المجيد في اليوم الثاني والعشرين من أمشير و يعملون جمعة الآلام بعد ذلك بأيام التي يختمونها بعيد القيامة . واستمر الحال كذلك إلى أيام الأب القديس البطريرك أنبا ديمتريوس الثاني عشر من بطاركة الإسكندرية ... ، الذي قام بتقرير قاعدة الصوم الأربعيني المقدس كما هي عليه الآن والتي ظلت سارية حتى اليوم وجعل جمعة الآلام متصلة بالصوم الأربعيني وحدد ميعاد الفصح المجيد].

يفهم من هذا أن الصوم الأربعيني تقليد رسولي ، وهذا بالضبط هو تعليم كنيسة الإسكندرية منذ زمن بعيد ، فالقديس كيرلس الكبير يقول في عظاته بخصوص الصوم المقدس أنه « حسب التقليد الرسولي » ، ومن قبله البطريرك ثيوفيلس يقرر ذلك أيضاً في خطاباته الفصحية . ولكن لم يكن هذا تعليم كنيسة الإسكندرية فقط ، فالقديس چيروم كان يعلم بهذا أيضاً و يقول في تفسيره لسفر إشعياء : [موسى وإيليا صاما أربعين يوماً فامتلآ وتأهلا للحديث مع الله . وربنا نفسه صام أيضاً أربعين يوماً في

البرية ليترك لنا رسم هذا الصوم بأيامه المحددة]. أما في تفسيره لسفر يونان النبي فيقول چيروم: [ربنا الذي هو يونان الحقيقي إذ أُرسل ليكرز للعالم، صام أربعين يوماً تاركاً لنا هذا التراث لنصوم هذا العدد المحدد حتى نعد نفوسنا للأكل من جسده]. و يعود القديس چيروم فيقرر بوضوح وصراحة في رسالته ٥٤ لمرسيللا أن هذا الصوم تقليد رسولي: [نحن نحتفظ بهذا الصوم الأربعيني كل سنة حسب التقليد الرسولي].

وحتى بابا روما المدعو «ليو» أو «لاون» (المتسبب في النزاع الخلقيدوني المشهور) يقول في عظته السادسة على صوم الأربعين: [إنه وَضْع رسولي أن يُصام أربعين يوماً كما رسمه الرسل بإلهام الروح القدس].

والملاحظ أن الأربعين يوماً المقدسة عندما كان يتأمل فيها بعض الآباء القديسين القدامى، كانوا يقارنونها بعدد الساعات التي قضاها الرب في القبر وهي أربعين ساعة محسوبة من منتصف يوم الجمعة إلى الساعة ٤ بعد منتصف ليلة السبت، أي أننا نصوم عن كل ساعة قضاها الرب في القبر يوماً كاملاً. وقد ظن بعض المترجمين من هذا أن الآباء كانوا يصومون ٤٠ ساعة فقط. والحقيقة أن هناك أيضاً صوماً آخر محدداً بالساعات دون أرقام في الدسقولية يصام فيها صوماً كاملاً انقطاعياً بدون أكل أو شرب، وما يزال مقرراً حتى الآن، وهو أثناء أسبوع البصخة والذي يكون من بعد التناول يوم خميس العهد إلى بعد التناول في قداس عيد القيامة الذي ينبغي أن يكون في فجر الأحد.

ومن الأشخاص الأوائل الذين ذكروا الصوم الأربعيني وأهميته، القديس إيرينيئوس الملقب «أبو التقليد الكنسي». وقد ذكر أنه قديم العهد جداً، و يراعى طقسه في أنحاء العالم كله، و يرجع إلى أيام الرسل(*) كما أثبت ذلك يوسابيوس في تاريخه الكنسي ٥: ٢٤. وإن كان يذكر أن الأربعين يوماً لم تكن محددة تماماً في كل كنيسة. وإذ نعود إلى مصر، يقرر المؤرخ سوزومين في تاريخه الكنسي ٧: ١٩ أن المصريين يصومونه ستة أسابيع أو سبعة أسابيع كاملة (وهذا هو الأصح). و يقول

(*) Iren. Epist. ad. Vict.

كاسيان الذي عاش راهباً فترة طويلة في براري مصر أن جملة الأيام الانقطاعية التي كان يصومها المصريون في هذا الصوم وحده هي ٣٦ يوماً، معلقاً على ذلك بقوله: [إن الستة والثلاثين يوماً بالتحديد التي هي مجمل أيام الصوم الانقطاعي هي بالنسبة لمجموع أيام السنة وقدرها ٣٦٥ يوماً تعتبر عُشر السنة]، أي كان في اعتبار آباء مصر أنهم بالصوم الأربعيني يقدمون عشور السنة صوماً!!

ونورد هنا ما سجله الأب الفاضل القس أبو البركات المعروف بابن كبر في كتابه الجامع لطقوس الكنيسة المعروف بمصباح الظلمة في إيضاح الخدمة عن الصوم الأربعيني، لأنها أقوال جزيلة النفع:

+ وقد ورد في الفصل العاشر من قوانين آبائنا الرسل ما هذا نصه:

[وأن تصوموا في كل عام أربعين يوماً كما صام موسى وإيليا النبيان العظيمان وجميع الأنبياء في العتيقة، وابتدأ سيدنا المسيح بذلك ليعلمنا أن نفعل ذلك قبل آلامه المحيية. وتمام أيام الصوم بعد ترك السبوت والحدود منها إلى يوم أحد القيامة أربعين يوماً على أن لا يُعَدُّ منها يوما الجمعة والسبت اللذان هما من أيام الصلب والدفن].

+ وقيل أيضاً بعد ذلك:

[يجب عليكم صوم الأربعين يوماً المقدسة وجمعة البصخة المقدسة التي هي جملتها ثمان جمع].

+ وقد قالت الدسقولية:

[فليكن عندكم جليلاً صوم الأربعين المقدسة].

وقد كان الصوم الأربعيني المقدس فيما تقدم من الأيام يُعمل ثاني يوم الغطاس كقول الإنجيل: «ولما صعد الرب من الماء للوقت أخرجه الروح إلى البرية ليجرب من إبليس. وصام أربعين نهاراً وأربعين ليلة».

وكانت جمعة الآلام تعمل مفردة في الوقت المخصوص بها، كما حدده الآباء وقرروه ورسموه، حتى يكون الفصح المجيد بعد عيد اليهود بحيث لا يوافقه جملة. ثم استقرت جمعة

الآلام بعد ذلك لتكون في آخر الأربعين المقدسة ، وقد حسن وضعها وعظم نفعها وصار الناس يعملونها ، وقد ارتاضوا رياضة روحانية وجسدانية ، وتلطفوا بما تقدم لهم من الصوم والصلاة ، والخشوع والخضوع ، وما تكرر على مسامعهم من التعاليم والعظات ، والميامر والنبوات التي تعقل العقول ، وتحقق التجسد السيدي بتلك النقول (الآيات المقتبسة من الكتاب المقدس) وتوطّن النفوس على تلقي الآلام المحيية الواقعة على ناسوته بالتصديق والقبول .

الطقس :

والذي يجب اعتماده أيام الصوم :

١ ــ أن يجتمع الشعب إلى الكنيسة سحر كل يوم (أي في الفجر).

٢ ــ يُقرأ أولاً خمسة مزامير قبطياً من سفر داود النبي ، ورأس قارئها مكشوف أمام الهيكل .

٣ ــ ثم يقدمون الصلاة بالأجبية وما يتلوها من قطع .

٤ ــ تقال تذاكية اليوم ، فإذا كان اليوم لحنه واطساً تزاد هذه الإبصاليات :

ⲡⲓⲙⲁⲓⲣⲱⲙⲓ ⲛ̀ⲁⲅⲁⲑⲟⲥ ..
ϯⲛⲏⲥⲧⲓⲁ ⲛⲉⲙ ⲡⲓϣ̀ⲗⲏⲗ ..
ⲛⲉⲕⲛⲁⲓ ⲱ ⲡⲁⲟ̅ⲥ̅
ⲡⲉⲛⲟ̅ⲥ̅ Ⲓⲏ̅ⲥ̅ Ⲡⲭ̅ⲥ̅ ..

أما في أيام لحن الآدام ، فيُقال بعد تسبحة الملائكة :

Ⲭⲉⲣⲉ ⲛⲉ ⲧⲉⲛϯϩⲟ ⲉⲣⲟ ..

٥ ــ و بعد ذلك يرفع البخور حتى نهاية الأمانة .

٦ ــ ثم تقرأ النبوات المختصة بذلك اليوم قبطي وعربي . وفي نهايتها يقول الكاهن :

ⲡⲓⲣⲉϥϣⲟⲩⲛ̀ϩⲏⲧ

٧ ــ وتبتدىء الأبروسات وكان يقولها الشماس (أما الآن فيقولها الكاهن) وأولها : «صلوا من أجل الأحياء» . و بعد كل ثلاثة أبروسات يقول : «إحنوا ركبكم» .

κλίνωμεν τὰ γόνατα

فيرد الشعب ارحمنا ياالله الآب ضابط الكل ــ ارحمنا ياالله مخلصنا ــ ارحمنا ياالله وأيضاً ارحمنا .

ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲛ ⲫ̀ϯ ⲫ̀ⲓⲱⲧ ⲡⲓⲡⲁⲛⲧⲟⲕⲣⲁⲧⲱⲣ
ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲛ ⲫ̀ϯ ⲡⲉⲛⲥ̅ⲱ̅ⲣ
ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲛ ⲫ̀ϯ ⲟⲩⲟϩ ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲛ

و بذلك يكون تمام السجدات إثنتي عشر سجدة .

٨ ــ و بعدها أوشية الإنجيل و يطرح المزمور . و يُقرأ الإنجيل و يُفسَّر.

٩ ــ يُقرأ من المواعظ ما جرت به عادة كل كنيسة . على أنه يوم الجمعة يُقرأ ميمر. وكذلك عشية الأحد حيث يُختار الميمر ليكون موافقاً للإنجيل . على أن الميامر والمواعظ مستحبة في الصوم كلما أمكن ذلك وفي كل وقت .

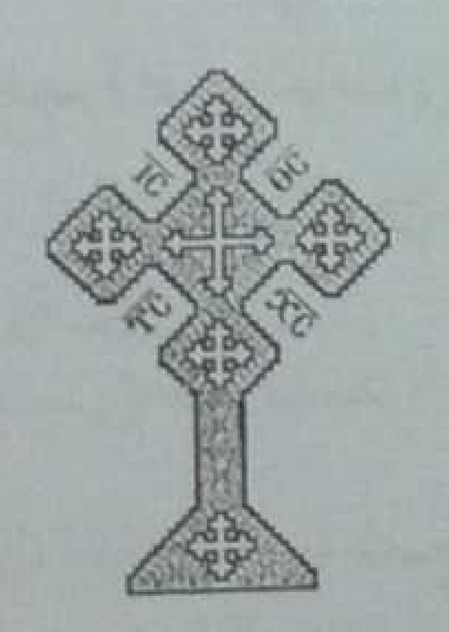
١٠ ــ تختم الصلاة كالعادة .

١١ ــ ثم تصلى صلاة السواعي عندما يحل ميعاد القداس .

١٢ ــ يبدأ القداس الساعة التاسعة ليكون فراغه الساعة الحادية عشر من النهار بحيث يكون الإفطار وقت الغروب .

وفي أيام الآحاد جرت عادة المصريين أن يُصلَّى بقداس القديس كيرلس الكبير.

(مارس ١٩٧٠)



قدّسوا صوماً

حينما نجاهد للسير في الطريق الضيق ، ليت ظل الصليب لا يفارق شعورنا حتى لا نفقد الصبر أبداً مهما بلغ بنا الضيق . أما العامل الأساسي لبلوغنا الصبر فهو في ألا نفقد معنى الحب فيما نقدمه من فدية .

ولتعلم يا أخي العزيز أن المجاهدة في الطريق الضيق تحتمل الوقوع إما في اليأس كضربة شمال وإما في الإحساس بالبطولة وإتقان الفضيلة كضربة يمين . ولا يمكن أن نبلغ إلى الحب الصحيح إلا إذا تجنبنا هذين الخطرين اللذين يتهددان سيرنا في الطريق الضيق ، وهذا يتم إذا عرفنا كيف نغلب أنفسنا لنحقق حبنا ، فلا نشفق عليها حتى لا نسقط في اليأس ، ولا نمتدحها حتى لا نسقط في الإحساس بالبطولة الذي يسميه القديسون « السُبح الباطل » .

ولو تعمقنا جوهر المحبة الإلهية — وهي نموذج المحبة التي نريد أن نسير بمقتضاها — نجدها لا تتم إلا بإنكار الذات إنكاراً يبلغ إلى التفريط فيها حتى إلى الهلاك [1] ، كما تعلمناها في المسيح على الصليب وما قبل الصليب . لذلك لكي نساير المحبة يلزمنا أن نمارس شعور البغضة [2] لأنفسنا إلى الدرجة التي لا نعود نشفق فيها على ذواتنا ولا على كل ما حسبناه ربحاً من هذا العالم .

والصوم تجربة تنبري فيه الشخصية ضد الذات ، وتدريب تُعاني فيه الذات هجراناً وصدوداً من جانب الإنسان . لذلك يُعتبر الصوم فعل محبة بالدرجة الأولى وجزءاً لا يتجزأ من اختبار الصليب ، ومدخلاً حسياً إليه .

---

(١) إهلاك الذات يتم بإلغاء مشيئتها . وقبول الموت هو صورة تفصح عن مدى إلغاء المشيئة الذاتية .

(٢) بغضة الذات محاولة باطنية لتحرير الشخصية من أسر الذات حتى يتمكن الإنسان أن يتحد بآخر (سواء الله أو إنسان) بواسطة المحبة .

الروح القدس ينتعش فينا إذا سرنا بقيادته إلى برية الصوم لمواجهة هلاك الذات جزئياً ، على مثال الخروف الذي يُساق إلى الذبح ، حيث يكون سر انتعاش الروح فينا أساسه نجاح الإنسان في تكوين صورة للمحبة المذبوحة كتجربة أولى للسير في طريق الصليب حتى النهاية .

وأنت تدرك أن جهد الصوم يقع أولاً على الجسد ، والجسد هو المكان المحسوس الذي تنحصر فيه الذات وتعلن عن طبعها ورغباتها . لذلك حينما نمارس الصوم ونُجهد الجسد ، فنحن ، بصورة غير مباشرة ، نرهق الذات [3] . فإذا بلغنا إلى إرهاق الذات بتذليل الجسد ، نكون قد اقتربنا في الواقع من هلاك الذات ولو « جزئياً » .

وهكذا بالصوم نكمل ، بصورة ما ، وصية الرب « من يهلك نفسه من أجلي فهذا يخلصها » (لو ٩ : ٢٥) . ولكن أعود أصحح الكلمة « جزئياً » ، لأنه لابد أن نبلغ إلى حالة قبول هلاك الذات كلياً ، وهذا لا يتم إلا بالنية . أي أنه حينما نبدأ بأي تدريب (كالصوم مثلاً) الذي يضعنا في حالة هلاك جزئي للذات ، يلزم أن نكمل هذا الإحساس (أو الإرتياح لقبول الهلاك الجزئي) بقبول الهلاك الكلي للذات ، وذلك بتصور قبول الموت نفسه والإرتضاء به بغير انزعاج أو مانع : « كان لنا في أنفسنا حكم الموت لكي لا نكون متكلين على أنفسنا » (٢ كو ١ : ٩) .

ابراهيم أبونا لما قدم ابنه اسحق ، قدمه جزئياً بيديه وقدمه كلياً بالنية ، ولما أوضح ابراهيم تقدمته لابنه وحيده اسحق تقديماً كلياً بالنية لم يدعه الله يمارس ذبحه ، بل اكتفى الله بالتقدمة الجزئية على المستوى الحسي ، فاعتبر الله أن ابراهيم ذبح ابنه فعلاً ، لذلك ولذلك فقط فداه الله ، فداه بخروف ، رمزاً للمسيح الذي سيفدي النفوس التي تعلن إهلاك ذواتها جزئياً بالعمل وكلياً بالنية .

ابراهيم لما قدم اسحق ابنه ، استُبدل اسحق — بمقتضى التدبير الإلهي — بخروف

---

(٣) إرهاق الذات أن تمارس عملاً لا ترتاح إليه ولا تريده . وهذا يأتي عرضاً في الصوم (لأن دافع الصوم الأساسي هو المحبة) .

كتعبير عن هلاك الجسد فداء للنفس ، ونحن في تجربة الصوم أو أي إنكار للذات يقوم على البذل والفدية ، نطالَب ألا نشفق على أنفسنا ، ونطالَب أن يكون تقديمنا لذواتنا وأجسادنا كاملاً بائنية ، أي أن نكون راضين حتى حكم الموت ، واضعينه في أنفسنا كأساس للحياة في أي لحظة .

ولكن الله يقف حارساً يمنع الهلاك من أن يتسرب إلى النفس . الله يفدي النفس « حي هو الرب الذي فدى نفسي » (٢ صم ٤ : ٩)... المسيح تبارك اسمه فدى نفوسنا ، فلا خوف البتة ولا انزعاج حينما نواجه تجربة هلاك الذات ، كأن نبحث عن خروف عوضاً عن أنفسنا ، لأن ذلك يعني أن تقديمنا غير كامل ، والنية عاجزة متقهقرة . وفي اللحظة التي تصل فيها النية إلى حد التفريط الكلي في الذات والإرتضاء الكلي بإهلاكها ، حينئذ نرى الخروف الوديع الذي رُبط بالشجرة وسُمّر في الخشبة ، يقدمه أبونا الحنون في الوقت المناسب حتى لا يهلك كل من أحبه وآمن به ...

وهذا تفسيره أنه إذا قدمنا شيئاً آخر عوض أنفسنا لا يُقبل . إذا تلفتنا لنبحث عن خروف نقدمه عوض الذات ، يضيع منا الوعد باسحق إلى الأبد ، بل يضيع منّا المسيح . فكل من عجز عن تقديم حياته كلياً وانزعج من البذل ، و بالتالي من الموت ، وتقهقرت فيه النية ، ورفض الموت ، وراوغ وتحايل وقدم تضحية شكلية كخدمة أو عطاء مالي أو حيلة أخرى للإنفلات من تقديم النفس ، فحينئذ يضيع منه حقه في المسيح كفادي ، لأن المسيح يفدي من الموت الذين قبلوا الموت .

إذاً يلزمنا أن تكون تجربة هلاك ذاتنا ليس فيها إشفاق ولا ضعف إيمان ، ولا تكون ناقصة ولا ينفع أن نعوض عنها لا بالمال ولا بأي شيء في الدنيا ، ولا بالعالم كله ، فالنفس أثمن من الجميع . وعوض النفس لا يوجد شيء البتة إلا المسيح تبارك اسمه . فهو الوحيد الذي ثمّن نفسه الإلهية بالنفس البشرية تنازلاً واتضاعاً من قِبَل المحبة الخالقة .

ونعود لنكرر أن المسيح ـــ تقدس اسمه ـــ لا يمكن أن يصير فدية للنفس البشرية ،

إلا إذا قدمها الإنسان على مذبح المحبة موتاً عن العالم تقديماً كاملاً من أعماق نيته ، وفرّط فيها علناً تفريطاً نهائياً ، ورفع السكين بيده بتصميم ونية صادقة أنه قبل الموت .

وكل تجربة وكل جهاد ضد الذات ، وكل صوم لا يبلغ فيه الإنسان حد التفريط في الذات إلى هذا المستوى ، أي مستوى السكين المرفوعة بيد ابراهيم على رقبة اسحق ابنه وحيده ، أو مستوى تفريط الله في ابنه حبيبه مسمّراً على عود الصليب ، فإنه لا يبلغ إلى حد استحقاق الفدية (المسيح) التي أعدها الله عوض النفس المبذولة هكذا ... بل ولا يعود الجهاد جهاداً ، ولا الصوم صوماً على مستوى هلاك الذات كالوصية ، وإنما يكون مداعبة للنفس وتثبيتاً لسلطانها .

الرب صام على مستوى عال لأنه كان يحقق في الجسد و بالجسد ما كان قد أكمله قبل التجسد : « أخلى نفسه » (في ٢ : ٧). وهو أكمل الإخلاء بصور شتى . ولكن كان الصوم أروع مشهد من مشاهد الإخلاء ، إذ فيه بذل جسده فعلاً على مستوى سري ، لأن تجربة الصوم الذي أكمله بالجوع والعطش الشديد أربعين يوماً تضمنت نية واضحة صادقة للبذل الكلي .

إذاً فالرب قد بذل جسده فعلاً قبل الصليب . وهو حينما قدم جسده لتلاميذه في عشاء الخميس ، قدمه كمصلوب بالإرادة قبل أن يُصلب بأيدي الأثمة ، وكمبذول بالنية قبل أن يبذله الحكام . أي أنه لم يقل : « خذوا كلوا جسدي الذي يُبذل ... وخذوا اشربوا دمي الذي يُسفك » إلا بناءً على حالة باطنية فيها انتهى المسيح من قضية نفسه ، مكملاً البذل ومكملاً السفك بإرادته ونيته ، وكان الصوم لها شهادة إثبات ، لأنه لم يكن سهلاً أن يقول الرب وهو جالس بين تلاميذه يأكل معهم و يشرب : « هذا جسدي الذي يبذل وهذا دمي الذي يسفك » (لو ٢٢ : ١٩ و ٢٠)، إن لم يكن قد باشر فعلاً هذا البذل وهذا السفك وإن كان بصورة سرية كما في الصوم .

الرب قد صلب ذاته للعالم قبل أن يصلبه العالم .

الرب باشر تقديم جسده ـــ أي ذاته ـــ ذبيحة عن العالم بعد أن اعتمد مباشرة

عندما اقتاده الروح ، فأطاع بسرور ليواجه تجربة الصوم التي هي المظهر الإرادي الذي يشرح الصليب .

لذلك اعتنى الرب جداً أن يرسم و يباشر طقس الإفخارستيا قبل الصليب لا بعد القيامة ... حتى يوضح فعل حرية الذبيحة والبذل .

إن الجسد السري الذي قُدّم في عشاء الخميس على هيئة خبز وخمر، أعمق معنى عرفه الإنسان عن رؤية غير المنظور في المنظور وتحقيق المستقبل في الحاضر... وإن كانت النبوة في العهد القديم تنحصر في رسم صورة عقلية في ذهن الناس للحوادث المتضمَّنة في المستقبل الغامض ، فالنبوة كما قدمها المسيح في العهد الجديد بشارة تحقيق المستقبل في الحاضر ، وقبول حسي لغير المنظور وغير المحسوس هكذا : « خذوا كلوا ... خذوا اشربوا... هذا جسدي ... هذا دمي » . وأرجو أن تلاحظ ياأخي أنه كان يتبقى على الصليب يوماً كاملاً حينما قال هذا . ولكنه رأى الحوادث الآتية أنها وفق مشيئته تماماً ، رأى الصليب قائماً وعليه الجسد يُذبح والدم يُسفك ، ورأى نفسه راضياً بكل هذا ... فأخذ خبزاً وحمّله سر الجسد المكسور، وخمراً وحمّله سر الدم المسفوك ، وأطعم تلاميذه ، فأكلوا من يديه سر مشيئته وشربوا سر حبه ، سر آلامه ، سر الخلاص .

لذلك حينما نشترك سراً في الجسد والدم في القداس ، فنحن لا نشترك في الصليب فقط ، بل وفي حياة سرية مبذولة وجسد تمرَّس بالصوم الشديد والحرمان والعوز والألم .

فإذا عبرنا على واحد من تلك المآسي التي تواجهنا كل يوم حينما نشهد للحق، نعتبر أنفسنا شركاء ــ أي مشتركين ــ « مع الذي تُصُرِّف فيه هكذا » (راجع عب ١٠ : ٣٣)، فلا نخور في أنفسنا... لأن شركة الجسد والدم تعبير ضمني لشركة كلية في حياة المسيح الحافلة بالتجارب والأصوام والآلام .

تقدمة الرب يسوع لجسده يوم الخميس ، كمبذول بالإرادة المحققة سابقاً وقبل أن يصلب يوم الجمعة ، كانت قدرة استمدها الرب من واقع حياته . حتى أن الصليب بنفسه كان تعبيراً عن حقيقة كائنة وواقع ، فيسوع صَلَب نفسه للعالم قبل أن يصلبه

العالم... الصليب حسب الظاهر جاء كآخر عمل عمله الرب، مع أنه كان موضوع حياته كلها وقد بدأ بتجربة الصوم ، لما بذل جسده بالجوع ودمه بالعطش أربعين يوماً كاملاً .

موسى صام أربعين يوماً مثلها ، ولكن في سبيل أخذ الشريعة والناموس أي كلمة الله المكتوبة .

إيليا صام أيضاً أربعين يوماً ، ولكن ليستحق رؤية الله والتقابل معه ، فصوم موسى وإيليا كان ربحاً لهما وللبشرية ... أما الرب يسوع فصام لا ليأخذ شيئاً ، وإنما ليعطي نفسه عطاءً حراً بالإرادة كاستعلان سابق لبذل الصليب...

ونحن نصوم ، لا لنأخذ شيئاً ولا لنعطي شيئاً ، لأننا أخذنا المسيح ، و بالمسيح أخذنا كل شيء قبل أن نصوم بل قبل أن نولد .

كذلك نحن نصوم ، لا لنعطي شيئاً ، لأن عطاءنا مهما بلغ ولو إلى حد الموت فإنه لا ينفع أن يرفع حتى ولا خطيئة واحدة . ويستحيل أن يبلغ صومنا إلى قياس الفدية ، كأن نبذل أجسادنا ودماءنا بالجوع والعطش لنفدي ولو أصغر نفس في البشرية بل ولا نفسنا أيضاً . لماذا؟ لأن الخطيئة التي فينا تعطل الفدية وتلغي قوة البذل .

إذاً فماذا يكون صومنا ؟

نحن نصوم ونقدم أجسادنا كذبيحة ، مظهرها تحمُّل التعب ، وجوهرها قبول الموت بالنية ، لنُحسب أهلاً أن نتحد سراً في جسد المسيح ودمه ، وحينئذ نصير في ذبيحة المسيح ذبيحة طاهرة قادرة في مفعولها للشفاعة والفدية .

لذلك يلزم أن ينتهي الصوم الذي هو البذل الناقص بسبب الخطيئة ، بالتناول أو بالشركة في الجسد والدم الطاهرين ، ليصير بذلاً كاملاً قادراً على الصلاة والشفاعة .

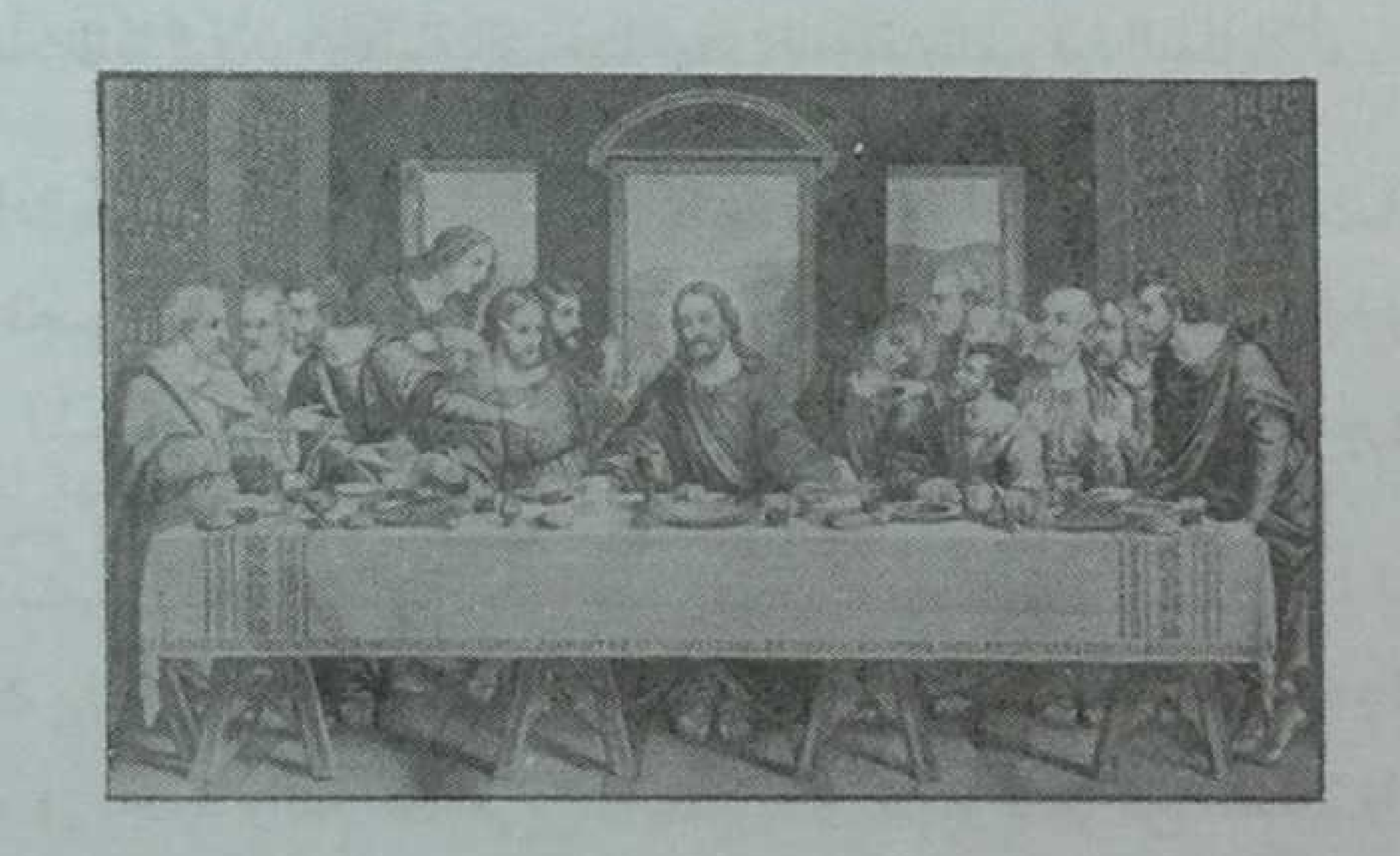
لذلك نجد أن كل تناول من الجسد والدم يسبقه صوم ، وكل صوم يلزم أن ينتهي بالتناول . وفي مثل هذا التناول تحل الشفاعة ، إذ تكمل ذبيحتنا و يكمل بذلنا « صلوا من أجل التناول باستحقاق... اطلبوا عنا وعن كل المسيحيين » (القداس الإلهي) .

نحن في صوم الأربعين نمهد أنفسنا لعشاء الخميس ، لأننا نهيىء المثيل للمثيل ، لأن الذي لم يبذل نفسه كيف يكون مستحقاً لشركة الذي بذل حياته ؟ وإذا أكلنا جسداً مبذولاً ونحن لم نبذل أنفسنا ، كيف ندّعي الإتحاد ؟

أما شركة عشاء الخميس السري ـــ الذي هو قبول حياة البذل بالنية ـــ فهو تمهيد لقبول الآلام علناً إلى الموت .

وهكذا ، كل مرة نأكل من الجسد ونشرب من الدم نحن نتهيأ سراً للبشارة بموت الرب والإعتراف بقيامته . وكل شهادة بموت الرب وقيامته تحمل استعداداً للإستشهاد . وكل استشهاد يحمل قيامة .

(مارس ١٩٥٩)



بمناسبة معمودية يوحنا والدخول في الصوم الأربعيني

توبوا ...

« من له أذنان للسمع فليسمَع »

لقد مهَّد يوحنا المعمدان ، بالتوبة ، الطريق لمعرفة المسيح وظهوره !!

بدون توبة عن الخطية ، وندم على حياة الإستهتار ، وعودة القلب إلى مخافة الله ؛ يتعذَّر استعلان معرفة المسيح و ينحجب ظهوره الإلهي عن النفس !... « وأنا لم أكن أعرفه **لكن ليُظهر لإسرائيل لذلك جئت أعمد بالماء ...**

... وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله » (يو١ : ٣١، ٣٤) .

إذن فكانت معمودية يوحنا بالماء للتوبة ، ضرورة مطلقة حتى يُستعلن المسيح !...

ولا تزال التوبة في كل حين وحتى هذه الساعة هي الطريق الوحيد الذي يوصلنا إلى التعرف على شخصية المسيح . فمن خلال ضغطة الحزن على الخطية والإحساس بالندم القاتل ، نستكشف رحمة يسوع وقيمة دمه وقدرة لاهوته على الإقامة من الموت والهاوية !!...

إذا لم نقف على خطر الخطيئة العاملة فينا ونحس في أعماقنا بسر الإثم ، لن نقف يوماً على قيمة الدم الإلهي ، ولن نحس أبداً بسر الفداء !! وإن كنا لا نفحص ضمائرنا ونلومها وننازع أنفسنا عن قبائح حياتنا الداخلية ونديناها ، ونكتشف في أخطائنا وشهواتنا وعيوبنا ونجاساتنا حقيقة أنفسنا ، فلن نشعر بأي حاجة إلى المسيح ، ولن نجد ضرورة ملحة للتعرف عليه ، و يظل لاهوته مجرد موضوع للإيمان يزداد و يتناقص بمقدار البرهان الفكري ، أما الدم المسفوك على الصليب فيبدو وكأنه بلا داع ، أو كأنه لازمة من لوازم قصة الصليب وحسب !!...

ولكن ياجلال الرب للقلب التائب !! و ياقوة الدم للضمير الذي يئن من ثقل الخطية !!

حينما تبلغ النفس إلى حقيقة ذاتها بعد أن تكون قد واجهت خطيئتها بشجاعة وصمود دون تهرب أو اعتذار أو عطف كاذب ... فحينئذ لا ترى مفراً من السقوط تحت خشبة الصليب !!...ولا تعود ترى في يسوع موضوعاً فكرياً للإيمان ، بل حقيقة حياة من الموت وخلاصٍ من الهاوية .

« من آمن بي ولو مات فسيحيا ... » (يو١١ : ٢٥) !! « من آمن واعتمد خلص » (مر١٦ : ١٦) !!

سؤال : وماذا يحتاج الإنسان الخاطىء ليقبل الإيمان بالمسيح ، فيقبل الحياة والخلاص ؟؟

الجواب : لا شيء !! فقط لا يعاند الصوت الداخلي ، ولا يقاوم الدعوة !!

« الحق الحق أقول لكم إنه تأتي ساعة **وهي الآن** حين يسمع الأموات (بالخطيئة) صوت ابن الله والسامعون يحيون » !! (يو٥ : ٢٥) .

* * *

بداية سيرة الخاطىء مع الله ، كبداية ميت في القبر...

ليس عليه واجبات ، لأن ليس له حقوق في شيء ! « ليس في الموت من يذكرك ولا في الجحيم من يعترف لك » (مز٦ : ٥)...

إن الخاطىء الذي غرَّته الخطيئة وقتلته يبدو وكأنه بلا نفس ، بلا قوة على العمل ، بلا حركة في الروح ، بلا أذن للسمع ؛ من أجل هذا جاء ابن الله ، كلمة الله الحية ، وأرسل صوته بالإنجيل ليزرع بكلمته أذناً جديدة في النفس الميتة لتسمع الإيمان وتعيه... وحين يسمع الخاطىء صوت ابن الله يحيا و يقوم من بين الأموات !!...

* * *

الخاطىء انسان في عُرف الروح ميت !... ولكن لا توجد خليقة مدللة ومحبوبة

لدى الله قط مثل هذا الميت المنتن بالخطيئة !!... فقد كان معروفاً عن المسيح أنه : « محب للعشارين والخطاة » (مت١١ : ١٩) !!

فكل خليقة في الوجود ، إن في السماء أو على الأرض ، عليها أن تتحرك وتجهد وتثابر لتحيا ، إلا الخاطىء ، فلا يطالَب من الله أن يتحرك إلى شيء أو يجهد من أجل شيء أو يثابر على شيء ، إلا أن يقبل فقط صوت الله الحنون ولا يرفض دعوة حبه ! « والسامعون يحيون » !!...

صوت الله قوة ليست محيية فقط بل **وجاذبة أيضاً** ، تستطيع أن **تجذب النفس** من أعماق الموت والهاوية وتقيمها من قبر الشهوات وتفكها وتدفعها . هذه الأمور يستحيل على النفس أن تؤديها من ذاتها ، بل و يستحيل عليها حتى أن تتشارك فيها ولا بشيء من الجهد ، ولكنها مطالَبة فقط أن لا ترفضها ...

« لا يقدر أحد أن يُقبل إليَّ إن لم **يجتذبه الآب** » (يو٦ : ٤٤)

« ... ومن يُقبل إليَّ لا أخرجه خارجاً » (يو٦ : ٣٧) .

* * *

وفي اللحظة التي يتقبل فيها الخاطىء صوت الله تنزرع في نفسه الميتة أذن روحية ، « يوقظ كل صباح ، **يوقظ لي أذناً** لأسمع كالمتعلمين ، السيد الرب **فتح لي أذناً** وأنا لم أعاند ، إلى الوراء لم أرتد » (إش ٥٠ : ٤ و٥) .

وحينما تتفاعل الأذن الروحية مع هذا الصوت بنجاح ، فالروح ينسكب في النفس خالقاً قلباً جديداً روحياً للإنسان من صنع الله ، يبدأ في الحال ينبض بالإيمان والولاء للذي فداه من الموت وخلصه . وحينئذ يأخذ الإنسان قوة على التحرك نحو الله والإجتهاد لإرضائه والمثابرة على حبه ...

هنا تبدأ سيرة جديدة للخاطىء تجاه الله الذي دعاه ، واجتذبه من موت الخطيئة وفداه ، وطهره من نجاساته وأحياه بدم يسوع المسيح وقوة قيامته من الأموات ؛ هنا

يصبح الخاطىء مطالباً ــ بعد أن ذاق ذلة الموت وتذوق مجد الحياة ــ أن لا يعود يسير بقدميه في طريق الموت !... وأن يبغض الطرق الخادعة المؤدية إلى الهلاك ! ... و يبغض الإثم !...

و بقدر ما طهره الله ــ بر يسوع المسيح ــ من نجاسات الخطيئة القاتلة ، أصبح مطالباً أن يسعى في أثر القداسة للحياة مع الله بقوة الله . « نظير القدوس الذي دعاكم كونوا أنتم أيضاً قديسين » (١بط ١ : ١٥) !!

بل وأصبح من صميم سيرة الخاطىء المطهر بالدم الإلهي أن يُسر و يفرح ويخبر بفضل الذي دعاه من الظلمة إلى نوره العجيب (١بط ٢ : ٩) !!

فإن كانت بغضة الخطيئة القاتلة هي من صميم فعل الندامة والتوبة ، فالفرح ببر المسيح وفعل دمه الماحي للذنوب والخطايا هو نور التوبة وبهجتها ، الذي يحفظ الخاطىء من النظر إلى الوراء و يؤمّنه ضد رعبة الموت الوهمية ...

وهكذا يصبح الخاطىء ــ بعد أن يحصل على قوة التوبة بفرح بر المسيح ــ قادراً أن ينطلق باستمرار من تعقب الظلمة له ومخاوفها ، و يواجه نور الحاضر ورجاء المستقبل ؛ « الذي أنقذنا من سلطان الظلمة ونقلنا إلى ملكوت ابن محبته » (كو١ : ١٣) ، و يصارع ضد شرور هذا الزمان بلا خوف ، مستتراً في المسيح ومتشبثاً بدعوته حسب إرادته و بقوة دمه ... « الذي بذل نفسه لأجل خطايانا لينقذنا من العالم الحاضر الشرير حسب إرادة الله وأبينا » (غل ١ : ٥) .

* * *

الخاطىء يسعى بتوبته لميراث الملكوت ، **ولا يملك إلا قوة الدعوة** التي حظي بها ، كبرهان اختيار ونعمة ، تحوي في داخلها سر الدم الإلهي القادر أن يغسل و يطهر و يقدس إلى التمام ، وحتى النهاية ، بدون نقص أو عجز أو ملل من جهة الله !!

* * *

ولكن كل خطيئة يقترفها الإنسان بعد ذلك عن وعي وإرادة و يكررها بعدم مخافة و بلا ندم وتوبة ، قادرة أن تصيب الأذن الروحية بالصمم والقلب الجديد بالتلف ؛ فلا يعود صوت الله يسمع بقوته المحيية المغذية ، ولا يعود القلب ينبض بالإيمان الحي ، ولا تعود النفس قادرة على التحرك أو الإجتهاد أو المثابرة كما ينبغي ... وحينئذ تدب في النفس شيخوخة روحية مبكرة تنذر بالخوف والخطر !! « وإن ارتد لا تسر به نفسي » (عب ١٠ : ١٢) .

* * *

كلمة الله لا تحيي مرة ، بل تحيي مرات ومرات لا تحصى و بلا عدد ، وصوت الله قوة لا تقيم من الموت فقط بل تقيم من الهاوية ، ولكن لابد أن يعرف الإنسان من أين سقط !!... ولابد أن يحصر خطيئته ، ولابد أن يتوب عنها باكياً نادماً في التراب حتى ولو كان ملكاً !!... ولابد أن يطرح نفسه تحت توبيخ الكلمة وانتهارها مهما كان عظيماً ، كمريض مدنف على الموت يسلم جسده لسلاح طبيب جراح . فالخطيئة سرطان الروح إذا استؤصلت مبكراً تنجو النفس ، وإذا استهين بها توغلت واستشرت وخربت ؛ فهي لا تعيش إلا بموت الإنسان !... « فأذكر من أين سقطت وتب ، واعمل الأعمال الأولى ، وإلا فإني آتيك عن قريب وأزحزح منارتك من مكانها إن لم تتب » (رؤ٢ : ٥) .

(فبراير ١٩٦٨)



العماد والتجربة ومدلولهما الخلاصي

بعد أن اعتمد المسيح، وانفتحت السموات ونزل الروح القدس وجاء صوت قائلاً: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررتُ» (مت٣: ١٦و١٧)، بدأت رسالة المسيح بأعماقها الفدائية واتساعها الخلاصي. فقد استُعلنت الرسالة بحلول الروح القدس، لأنه هنا هو روح المسحة، التي يُنصَّبُ بها الملوك والأنبياءُ! ولكن صوت الآب من السماء صحَّح المفهوم، إذ استُعلن الممسوح جهاراً، فلا هو نبيٌّ ولا هو ملكٌ، بل هو ابن الله الحبيب الذي به مسرة الآب، والذي جاء ليتمم جميع النبوات لجميع الأنبياء ويرفع هامة الملوكية من الأرض إلى السماء، وفيه يَستعلِنُ الله ملكوته.

وكان هذا على مرأى ومسمع من الشيطان، فكان هذا الذي حدث تنبيهاً للعدو واستفزازاً، فيومه قد حضر.

ومن النص المكتوب في الإنجيل نفهم أن الإرادة تقابلت: إرادة المسيح لكسر شوكة الشيطان، وإرادة الشيطان لمقاومة الرسالة بكل حيلة ووسيلة. ففي إنجيل لوقا نجد التعبير يدلُّ على قبول المسيح للتجربة وعدم رفض المنازلة: «أما يسوع فرجع من الأردن ممتلئاً من الروح القدس. وكان يُقتادُ بالروح في البرية أربعين يوماً يُجرَّب من إبليس.» (لو٤: ١و٢)

أما تحديد التجربة بأربعين يوماً، فهذا الرقم يخفي وراءه دائماً أزمنة الضيق والمجاهدة فيما لله والصبر الشديد. فموسى صام أربعين يوماً تحت ملاحظة الله على جبل سيناء (خر٣٤: ٢٨)، ثم عبوره مع شعبه أهوال الصحراء والبراري لأربعين سنة (مز٩٥: ١٠)، وإيليا النبي في ضيقهِ سار أربعين يوماً وأربعين ليلة يطلب وجه الله (١مل١٩: ٨)، والطوفان دام، معبِّراً عن غضب الله، أربعين يوماً وأربعين ليلة (تك٧: ١٢)، وإسرائيل وقع أسيراً في يد الفلسطينيين أربعين سنة (قض١٣: ١).

أما الأربعون يوماً التي صامها الرب، فحُسِبت أول خطوة على طريق الآلام في مناوشة العدو على درب الصليب. ويقول القديس مرقس إنه «كان مع الوحوش، وصارت الملائكة تخدمه» (مر١: ١٣). وهذا نحسبه تلميحاً مُبدعاً لصورة الفردوس المفقود مع آدم قبل أن يخرَّ به الشيطان بتجربته. فآدم، في التقليد القديم، كان مع الوحوش، وكانت تأتنس به، لأن كلمة μετὰ τῶν [«مع الـ» (بالجمع)]، تفيد الأُلفة والرفقة كما جاءت هنا مع المسيح. فهنا يُجري المسيح أول عملية مصالحة للإنسان مع الوحوش بعد أن فقد سلامه معها بسقوطه الذي طالها وأفسدها (رو٨: ١٨). فكانت هذه المصالحة تمهيداً للمصالحة النهائية بعد أن ننال فداء أجسادنا (رو٨: ٢٣)، وقد تسجَّلت هذه المصالحة وصارت من مكاسب تجربة الأربعين يوماً وهي محفوظة لنا: «ها أنا أعطيكم سلطاناً لتدوسوا الحيات والعقارب وكل قوة العدو، ولا يضرُّكم شيء» (لو١٠: ١٩). ويقولها القديس مرقس: «يحملون حيَّاتٍ، وإن شربوا شيئاً مميتاً لا يضرُّهم شيء» (مر١٦: ١٨). ويشهد بصدق هذا القديس بولس في مالطة (أع٢٨: ٥). وهكذا أخضع المسيح «قوة العدو» لحساب الكرازة ولعمل الخلاص. وكأنما كان انفتاح السماء وانسكاب الروح على الابن المحبوب إيذاناً بانفتاح باب الفردوس، تعبيراً عن بدء زوال سلطان العدو وكل قواته.

أما الملائكة التي صارت تخدمه حسب اللفظ اليوناني διηκόνουν αὐτῶν فتفيد حسب التقليد القديم أنها كانت تعدُّ له مائدة الروح، كما كانت تطعم آدم في الفردوس بطعام الله السرِّي(١)، تأكيداً على أن الفردوس عاد تقليده للإنسان. فهذه لمحة سرية عن عودة شركة الحب ممثَّلاً في مائدة تُعدُّها الملائكة بين الله والإنسان، وعودة الأيام التي كان الإنسان يأكل فيها في حضرة الله فيمتلىء فرحاً ونعيماً وسروراً. وكان هذا مكسبنا الكبير من تجربة الأربعين، الذي انحدر إلينا باستعلان الإفخارستيا، أي مائدة الرب هي هي، والملائكة فيها يخدمون.

1. Sanhed. 59b (Tannaitic), cited by Joachim Jeremias, p. 70.

ظل الشيطان يتحيَّن الفرص ليقدِّم تجربته، إلى أن جاع المسيح أخيراً. فتقدم بأُولى تجاربه، قاصداً منها زعزعة ثقة المسيح في بنوّته للآب كما سمعها من السماء، وبالأكثر نَقْلَ مسحته لتخدم ملوكية الأرض ومنافعه الذاتية بدل خدمة الخلاص عَبْرَ درب الصليب باتجاه ملكوت الله! «**إِنْ كنتَ (أنت) ابن الله، فَقُلْ** أن تصير هذه الحجارة خبزاً» (مت ٤: ٣). هكذا صوَّب الشيطان سهمه الأول تجاه صوت الله من السماء، تماماً كما صوَّب سهمه لآدم وحواء من جهة وصية الله: «أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟» (تك ٣: ١)، وهكذا بدأ ليزعزع إيمانها بوصية الله، وقد نجح!

أما هنا وقد استُعلنت بنوّة المسيح جهاراً من السماء، لكن هذا الإعلان بحسب الشيطان يُعْوزه البرهان، والمسيح من واقع الحال هو جائع، فهنا يتحوَّل السهم إلى المسيح. فهل يستخدم المسيح سلطانه الإلهي لخدمة أعوازه ومصلحته الشخصية؟ فإن صنع ذلك، يكون الشيطان قد زحزح المسيح عن هدف الخلاص الأوحد!! ولكن هذا هو المستحيل، ولسان حال المسيح صحيح أنَّ: «كلُّ شيءٍ قد دُفِعَ إليَّ من أبي» (مت ١١: ٢٧)، ولكن: «أنا لي طعام لآكل لستم تعرفونه أنتم... طعامي أن أصنع مشيئة الذي أرسلني وأُتمم عمله.» (يو ٤: ٣٢و٣٤)

وهنا خاب الشيطان في زعزعة علاقة الابن بالآب وتحويل اتجاهه من الصليب إلى مصلحته الشخصية. وهكذا انتقل إلى التجربة الثانية: «ثم أخذه إبليس (برؤية تصوُّرية) إلى المدينة المقدسة وأوقفه على جناح الهيكل، وقال له: "إن كنتَ (أنت) ابن الله، فاطرح نفسك إلى أسفل، لأنه مكتوب إنه يوصي ملائكته بك، فعلى أياديهم يحملونك، لكي لا تصدم بحجر رجلك"، قال له يسوع: "مكتوب أيضاً لا تُجرِّب الرب إلهك."» (مت ٤: ٥ـ٧)

واضح أنه لما رفض المسيح أن يستخدم سلطان بنوّته لله لمنافعه الشخصية، حوَّل هذا السلطان لمنفعة الكرازة. لأنه إذا طرح نفسه هكذا بهذه الصورة الأخَّاذة الباهرة، فإنه يعلن عن مجده، فيؤمنون به، خاصة أن ذلك مكتوب عنه!! ولكن لم يَغِبْ عن

المسيح أن السهم هنا مصوَّب للإعلان عن مجده الذاتي!! وهذا الأمر كان ابن الله قد حسب حسابه قبل تجسده وأخلى نفسه من مجد لاهوته الذاتي محتفظاً به ليوم قيامته من الأموات!!! فردَّ عليه المسيح: «مكتوب لا تُجرِّب الرب إلهك» (مت ٤: ٧). فكل مجازفة تُعمَل على أساس وصية مكتوبة هي بمثابة تجربة الله وتشكيك في صدق ما يقول.

وإذ أُعيي الشيطان وخاب في ظنونه، قدَّم التجربة الثالثة والأخيرة، وهي أخطر ما قدَّم، وظل يلوِّح بها حتى الصليب:

+ «ثم أخذه أيضاً إبليس إلى جبل عالٍ جداً وأراه جميع ممالك العالم **ومجدها**، وقال له: أعطيك هذه جميعها إن خررتَ وسجدتَ لي.» (مت ٤: ٨و٩)

ولكن إنجيل لوقا يزيد قائلاً:

+ «لكَ أُعطي هذا السلطان كله ومجدهن (مجد الأمم)، لأنه إليَّ قد دُفع وأنا أعطيه لمن أريد، فإن سجدتَ أمامي يكون لك الجميع».

«فأجابه يسوع وقال: اذهب يا شيطان، لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد.» (لو ٤: ٦ـ٨)

تأتي هذه التجربة رداً على المسحة التي تمت على الأُردن بالروح القدس، والتي تُجرى «للملوك»، فلماذا لا يعرض الشيطان عليه ملوكية العالم كله بكل مجده إنْ هو تخلَّى عن علاقته بالله وتهادن مع الشيطان وتخلَّى عن فكرة الصليب؟!!

ولكن لا تستهِنْ، أيها القارىء العزيز، بهذا العرض، فقد أقام الشيطان كل أمة اليهود برؤساء كهنتها ورؤساء الشعب فيها والسنهدريم بكل علمائه ليُثْنُوا المسيح عن الصليب ويكون عليهم ملكاً لمنافع الأمة ومُلْكها الدائم (حسب الوعد) أو حسب المكتوب!!! وليس أمة اليهود فقط، بل وبطرس أشجع التلاميذ دخله الشيطان على نفس المستوى، ولما سمع الرب يتكلم عن الصليب والموت، «انتهره»: «حاشاك يا رب» (مت ١٦: ٢٢)، وكان ردُّ المسيح عليه: «اذهب عني يا شيطان لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس» (مر ٨: ٣٣). وهكذا فضح نية بطرس ونية الشيطان أيضاً.

وكم كان بطرس يود لو يصير المسيح ملكاً على الأرض لمنفعة الناس، بل إن أم يوحنا الحبيب ويعقوب توسَّلت أن يكون لهما حق الأسبقية حينما يُنصَّبُ المسيح ملكاً على إسرائيل، أن يكون واحد عن يمينه والآخر عن يساره!! بل إن إنكار بطرس ثلاث مرات كان بإقناع الشيطان أنه إذا لم يكن هو الملك الآتي فلماذا نشهد له؟ فأنكره. بل والتلميذ الخائن لما تأكد أن المسيح قادم حتماً إلى الصليب والموت، باعه. بل والتلاميذ جميعاً ومجتمعون، لما رأوا المسيح مسوقاً للصلب أمامهم، تركوه كلهم وهربوا!

لماذا؟ لأنهم كلهم كانوا طامعين في الكرامات التي سيُغدق بها عليهم يوم أن يُنصِّبوه ملكاً على إسرائيل!!

لذلك لما أكمل الشيطان تجاربه، يقول الكتاب: «ولما أكمل الشيطان كل تجربة، فارقه **إلى حين**» (لو٤: ١٣). فكان الشيطان مع التلاميذ امتداداً لتجربة الأربعين يوماً، إلى ثلاث سنوات ونصف، ولما أكمل معهم تجربته بنجاح يُحسَدُ عليه، لم يترك المسيح حتى على الصليب، فعمل له موكباً فخماً من رؤساء الكهنة ورؤساء الشعب وجاءوا إليه وهو مرفوع أمامهم على الصليب يعرضون تجربة الشيطان عينها، تجربة الأربعين يوماً، رفعوا صوتهم عالياً ليسمعهم: «إن كنت أنت ابن الله، فانزل عن الصليب» (مت٢٧: ٤٠). ولم يكن تحالف هذه القُوى مع الشيطان مخفياً عن المسيح، إذ لما جاءوا بنفس موكبهم للقبض عليه، لمح الشيطان راكباً على رؤوسهم، فقال: «هذه ساعتكم وسلطان الظلمة»!! (لو٢٢: ٥٣)

وإن كنا نقول في قداس القديس باسيليوس: «... والموت الذي دخل إلى العالم **بحسد إبليس** هدمته»، فلا عجب أن يكتشف هذا الحسدَ بيلاطُس البنطيّ الروماني: «لأنه عرف أن رؤساء الكهنة كانوا قد **أسلموه حسداً**.» (مر١٥: ١٠)

ولكن كانت تجارب الأربعين يوماً وما تفرَّع عنها جزءاً لا يتجزأ من ميراث خلاصنا. يقرر هذا سفر العبرانيين بقوله: «لأنه فيما هو قد تألَّم **مجرَّباً** يقدر أن يعين المجرَّبين» (عب٢: ١٨)، «**مُجرَّبٌ** في كلِّ شيء مثلنا بلا خطية.» (عب٤: ١٥)

+++

ونحن لو حلَّلنا تجارب الأربعين يوماً، وقدرة الشيطان على الاستمرار في تلويث ذهن التلاميذ والأمة اليهودية كلها، لكي يُثني تصميم المسيح على المضيّ قُدُماً في طريق الصليب حتى ولو كلَّفه ذلك أن يتنازل رسمياً عن مُلْك العالم كله، فإننا نفهم — وليفهم القارىء — أنها كانت تجارب جدَّ خطيرة — أرهقت المسيح أيَّما إرهاق (لو٢٢: ٤٤) — وطوَّحت بالأمة اليهودية بعيداً عن الخلاص، وطوَّحت بالتلاميذ ثلاث سنوات ونصف كغرباء عن الصليب، لم يفيقوا من خمر الشيطان إلاَّ بعد أن تأكدوا من قيامة المسيح وأدركوا أن مجده الذي اكتسبه من الصليب في الحاضر الزمني وفي مستقبل الدهور، هو مجد لا يدانيه مجد العالم ولا ألف ألف مرة، وأنه أنشأ خلاصاً أبدياً ومجداً لجميع الذين يؤمنون به.

سبق استعداد المسيح لهذه التجربة العظمى

المسيح كان يعلم قوة العدو الذي سيقف في مواجهته، فاحتاط له كل الاحتياط، ووضع خطة انتصاره قبل أن يخطو في طريق آلامه!!

ولضيق المساحة المتاحة لهذه المقالة، نقدمها باختصار في آية واحدة مضيئة، موقَّعة خطوة خطوة على تجربة آدم وسقوطه. لا لكي يتحاشى المسيح أخطاء آدم، بل لكي يحملها على نفسه ويرفعها بموته:

+ «**الذي إذ كان في صورة الله**
لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله
لكنه أخلى نفسه،
آخذاً صورة عبدٍ
صائراً في شِبْه الناس،
وإذ وُجِدَ في الهيئة كإنسان،
وضع نفسه
وأطاع حتى الموت
موت الصليب.» (في٢: ٦-٨)

القديس بولس يضع هنا مقارنة بإلهام إلهي فائق لم ينتبه إليه أحد حتى الآن، وذلك بين آدم وما صَنَعَ و بين المسيح وما صَنَعَ، تحتاج من القارىء عمق التأمل:

ـ آدم خُلق على صورة الله، في العقل والحرية.

+ والمسيح ابن الله كان في **صورة الله بالجوهر**: «بهاء مجده ورَسْمُ جوهره.» (عب ١: ٣)

ـ آدم حاول أن يصير **مُعادلاً لله خلسة** بتحريض الشيطان الذي أوحى إليه أن «يوم تأكلان منه ... **تكونان كالله**.» (تك ٣: ٥)

+ المسيح: «**لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله**» (في ٢: ٦)، لأنه هو والآب واحد: «أنا والآب واحد.» (يو ١٠: ٣٠)

ـ **آدم أراد أن يزيد على ذاته مجداً كمجد الله.**

+ **المسيح أخلى ذاته من مجد لاهوته.**

ـ آدم شرع بالفعل أن يأخذ **صورة الألوهة في المعرفة** من الشجرة المحرمة.

+ المسيح **أخذ صورة عبد**: «وعبدي البار **بمعرفته** يبرِّر كثيرين وآثامهم هو يحملها.» (إش ٥٣: ١١)

ـ آدم صار بالفعل في شبه الله: «هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر.» (تك ٣: ٢٢)

+ المسيح إذ صار في **شبه الناس** وضع نفسه: «وابتدأ يغسل أرجل تلاميذه ويمسحها بالمنشفة»، «أنا بينكم كالذي يخدم.» (يو ١٣: ٥؛ لو ٢٢: ٢٧)

ـ آدم عصي الله عصياناً انتهى به إلى الموت كعقوبة لخطيته.

+ المسيح وضع ذاته وأطاع، حتى الموت، كفَّارة عن كل خطية وكل الخطاة.

ـ **آدم أخذ الموت كلعنة أبدية وورَّثها لنا.**

+ **المسيح ارتضى أن يأخذ الموت على الصليب ليرفع اللعنة الأبدية ويورِّثنا برَّه**

وملء الحياة.

هكذا تسلَّح المسيح قبل أن تطأ قدماه أرض الغش والخداع، وقبل أن يتواجه مع الكذاب والمخادع، فغلبه قبل أن يواجهه.

وهكذا حينما أقسم الشيطان بشرفه أن يُلبس ابن الله صورة العبيد؛ كان قد سبقه ابن الله ولبس صورة العبد وهو في السماء في أَوج صورة لاهوته،

وحينما دبَّر الشيطان تدبيراً أن يهين مجد لاهوته فيه، و يجعله أقل الناس حتى إلى المذلة؛ كان ابن الله قد سبق هو وتخلى عن كل مجد لاهوته وصار في شبه الناس، ووضع نفسه وحضَّرها للإهانة، وربط وسطه، وتدرب على وظيفة العبيد.

وحينما أقسم الشيطان بحياته أنه طالما لبس ابن الله جسداً، فحتماً سيسلب منه الحياة ويُلبسه العار؛ كان المسيح قد سبق واستأذن الآب أن يسلِّمه الروح والحياة ليدخل الموت بإرادته وإلى آخر حدوده، محتفظاً بلاهوته فيه الذي لا تطاله يد المنافق الكذاب.

فقام بعد أن أكمل أقصى حدود الموت بمجده ولاهوته، وأقام الجسد ناصراً منتصراً دائساً الخطية والموت والشيطان، محطِّماً كل أسلحته، وسلَّمنا وثيقة الظفر بالقيامة من الأموات وصكَّ غفران وكتاب الحياة وأسماؤنا فيه.

+++

نعم، نودُّ من القارىء أن لا يستهين بتجارب الأربعين يوماً، لأنها و بعد هذا الذي قلناه كله، لا يزال يستخدمها الشيطان نفسه لِيُثني الناس عن مسيح الصليب، لأنهم لا يزالون يطلبون مُلْكَ العالم ومجده بحسب استحسان الشيطان.

يناير ١٩٩٣

صوم جماعي وتوبة جماعية

« إحنوا رؤوسكم للرب » :

تاس كيفلاس ايمون توكر يو إكليناتيه ... (*)

τὰς κεφαλὰς ὑμῶν τῷ κυρίῳ κλῆνατε

بهذه الجملة المهيبة يهتف الشماس وهو واقف بجوار المذبح يدعو الشعب وكل الإكليروس أن يطأطئوا رؤوسهم لله قبل التقدم للتناول قبل أن يصرخ الكاهن قائلاً: « القُدْسات للقديسين ».

ولكن لشدة الأسف لا يستجيب الشعب أو الإكليروس لهذا النداء كما ينبغي فبعضهم يسمع النداء ولا ينحني و بعضهم يسمعه فيسجد وكلاهما يخطىء السمع والفهم والإستجابة...

إن الدعوة هنا إلى إحناء الرأس للرب، لأنها لحظة توبة واعتراف بالخطايا، حتى يؤَهَّل الشعب لقبول صلاة الحل من فم الكاهن.

فالكاهن في هذه اللحظات، والشعب كله منحنٍ، يعترف عن الشعب ومع الشعب لدى الله: « اللهم ياحامل خطية العالم ابدأ بقبول توبة عبيدك من أيديهم نوراً للمعرفة وغفراناً للخطايا... اللهم حاللنا وحالل كل شعبك من كل خطية ومن كل لعنة ومن كل جحود ومن كل يمين كاذب... ».

أما لماذا يكون هنا إحناء رأس وليس سجوداً؟ فلأن الدعوة هنا ليست للعبادة وتكريم الله، بل الدعوة إلى الإعتراف بالخطايا في إنسحاق وخوف وتذلل، فالشماس بهذا النداء المحدد لإحناء الرأس إنما يقصد أن يذكِّرنا بموقف معين هو موقف العشار الذي ذكره المسيح: « أما العشار **فوقف** من بعيد **لا يشاء أن يرفع عينيه نحو السماء**

(٥) هذا النداء عينه يقوله الشماس في ختام صلاة رفع البخور لتقبُّل صلاة الحِلِّ من الكاهن، حيث يخطىء بعض الناس و يستجيبون للنداء بالسجود في حين أن المطلوب هو إحناء الرأس فقط.

بل قرع صدره قائلاً اللهم ارحمني أنا الخاطىء »... (لو١٨ : ١٣).

إذن، فالذي يحني رأسنا في هذه اللحظات الرهيبة ــ قبل التناول ــ هي الخطية، المسألة ليست طقساً وحسب، بل حزن وتوجع وخجل مع الإحساس بالهم الثقيل من جراء تذكرنا لخطايانا، هذا هو الذي يجعل رأسنا تسقط على صدرنا من تلقاء نفسها، هذا الندم مع الحزن الشديد الذي يجعل الإنسان غير قادر بالمرة أن يرفع رأسه نحو السماء، هو موقف يتناسب مع الحضرة الإلهية وأمام الجسد والدم، إنه موقف مطلوب في هذه اللحظات الحرجة.

الفريسي في مثل المسيح رفع رأسه نحو السماء معتمداً على صومه وصدقته وطهارته وعدله: « اللهم أنا أشكرك أني لست مثل باقي الناس الخاطفين الظالمين الزناة... أصوم مرتين في الأسبوع وأُعشِّر كل ما أقتنيه » (لو١٨ : ١١و١٢).

ولكن للأسف فبالرغم من كل هذا فإن الله لم يرفع وجه الفريسي، فالمسيح يقول إن العشار نزل مبرَّراً دون الفريسي...

وبمعنى أوضح فإن الصلاة والصوم والصدقة وطهارة الجسد مع العدل والتعفف، كل هذه لا تستطيع وحدها بدون توبة أن ترفع وجه الإنسان أمام الله، لأنه بعد كل هذه الفضائل وأكثر منها يظل الإنسان بلا قدرة ولا استطاعة ولا حق أن يرفع رأسه أمام الله... الخطية تمنع الإنسان أن يرفع رأسه بتاتاً... الذي برر العشار هو أنه أحنى رأسه إحساساً منه بأنه غير مستحق أن يرفع عينيه نحو السماء، وعلى الوجه الأصح فإنه لم يستطع قط أن يرفع رأسه لأن خطيئته كانت ماثلة أمامه في ذلك الحين...

إن توبة العشار واعترافه بالخطيئة مع انسحاق نفسه وانكسار قلبه الذي ظهر في إحناء رأسه وقرع صدره أمام الله جعلت صلواته وصدقاته وأصوامه مقبولة لدى الله، برر العشار لما دان العشار نفسه.

حينما ينادي الشماس بإحناء الرأس فإنه يدعو إلى دينونة النفس حتى تؤهَّل لتبرير الله بواسطة الجسد والدم.

الكنيسة في هذه اللحظات تقف كلها تائبة منحنية الرأس تطلب الغفران، الشعب كله يكون مدعواً بهذا النداء أن يسترجع في حياته موقف العشار، لذلك يُقال أن الكنيسة جماعة تائبين.

الصوم والتوبة:

الكاهن يهتم أن يسأل المتناولين في أيام الصوم عن صومهم ولا يهتم أن يسألهم عن توبتهم... الأمر هنا يحتاج إلى مراجعة، فالله لم يهتم إطلاقاً بصوم الفريسي مع كل صدقاته وتطهيراته لأنه كان خالياً من الإنسحاق والتوبة والإعتراف بالخطيئة... في حين أن التوبة بررت العشار في نظر الله وأهلته أن يكون صاحب صوم مقبول وصلاة مسموعة!!

فالتوبة وحدها هي التي تجعل الصوم صوماً، وبدونها لا يُحسب الصوم شيئاً. إذن فالصوم بدون توبة لا يبرر ولا يؤهل للتناول.

طقس التوبة والتناول من الجسد والدم:

الكنيسة جعلت من إحناء الرأس طقساً للتوبة، إنها مهارة من الكنيسة وحذق من الروح القدس أن يشكل من الطقس دعوة لتوبة جماعية ينادَى بها في كل صلاة كشرط أساسي للتناول من الجسد والدم. التوبة الجماعية هي أقدر الوسائط جميعاً في توحيد الجماعة تحت تأثير انسحاق الروح وانكسار القلب وقرع الصدر. الشعور بالخطيئة يوحد الجماعة، لأن الكل من جهة الخطيئة واحد ومتساوون: «أغلق على الجميع معاً في العصيان لكي يرحم الجميع» (رو١١: ٣٢).

إن نداء الشماس للشعب وكل الإكليروس بإحناء الرأس والوقوف موقف العشار قبل التناول مباشرة هو في الحقيقة دعوة للوحدة من تحت تأثير واحد بالشعور بالخطيئة، الجماعة المتحدة هنا بشعور الندم والتوبة تؤهَّل لكي تشترك في الجسد الواحد والدم الواحد للتبرير، وهنا الجماعة كلها تنزل إلى بيوتها مبرَّرة.

الكنيسة هنا تبنَّت موقف العشار بفضل الطقس الذي جمع القلوب معاً ونبهها لتوبة واحدة في وقت واحد، والروح القدس في هذه اللحظات يجعل من جماعة الخطاة التائبين جماعة قديسين ومن القرابين قُدساتٍ للقديسين.

ياما أعجب الطقس! و ياما أعجب الروح القدس في الكنيسة! إنه يُتعجَّب منه حقاً، ولكن هل من مزيد من المعرفة؟ وهل من مزيد من توجيه للشعب حتى يعرف كيف يشرب الروح القدس وكيف يرتوي من نعمة الله وكيف يتوب و يتوحد معاً تحت شعور واحد بالندم؟؟

أعَلِمتُم يا أحبَّة كيف ومتى يصرخ الكاهن: «القدسات للقديسين»؟ أو كيف يصير الشعب بالحملة جماعة خطاة منسحقين منحنين من جراء انكسار القلب تحت وطأة الشعور بالخطية؟ ثم كيف يرفع الروح القدس وجه الكنيسة مرة واحدة عندما يقبل الشعب جميعاً التبرير من الله كاستجابة لإنسحاقهم وانحناء رؤوسهم وقرع صدورهم حسب قول وصدق الكتاب: «إلى هذا أنظر إلى المسكين والمنسحق الروح والمرتعد من كلامي» (إش٦٦: ٢)؟ فحينما يقول الكاهن: «القدسات للقديسين» يعني أن الله قَبِل توبتهم ورفع وجههم وأكمل تبريرهم بسبب اعترافهم، وصاروا قديسين بفعل الغفران ومستحقين للجسد بفعل التبرير.

الشماس يشهد لتوبة الكاهن:

ولكن قبل أن يصرخ الكاهن بصيرورة القدسات (الجسد والدم) من استحقاق الشعب التائب، يصرخ أيضاً الشماس بدوره مخاطباً الكاهن ومشجعاً إياه، بعد أن يكون قد اعترف لتوه بخطاياه أمام الله بانسحاق كثير وحزن مع تذلل عندما يقول: [أذكر يارب ضعفي أنا أيضاً وأغفر لي خطاياي الكثيرة. وحيث كثُر الإثم فلتكثُر هناك نعمتك ومن أجل خطاياي خاصة ونجاسات قلبي لا تمنع شعبك نعمة روحك القدوس] فيرد عليه الشماس في الحال: «خلصت حقاً»!!

عجيب طقس الكنيسة القبطية، فإنه حينما يضع الشعب تحت دعوة الإنحناء وقرع

الصدر ونداء التوبة لا يستثني الكاهن، فالكاهن في القداس القبطي خاطىء وتائب عن نفسه ومعترف عن خطايا الشعب وممثل لتوبتهم، وحصول التبرير لا ينسى أيضاً نصيب الكاهن إذ قد صار بالإنسحاق والتوبة قديساً ونائباً عن قديسين، وأنه لمن روائع القداس القبطي أن يخاطب الشماس الكاهن معلناً له الخلاص!! و بالنهاية نجد أن القداس يلهمنا روح التوبة الجماعية كشرط مسبق للخلاص والتبرير بجسد ودم المسيح.

القداس وروح التوبة الجماعية:

واضح إذن أن القداس يعطينا إلهاماً واضحاً عن قيمة التوبة الجماعية والإعتراف مع الإنسحاق أمام الله كشرط مسبق لحلول الروح القدس على القرابين وعلى الشعب والكاهن معاً: [ليحل روحك القدوس علينا وعلى هذه القرابين الموضوعة...] حتى تصير القدسات للقديسين...

القداس أبقى لنا الصورة الكاملة عن كيفية التوبة الجماعية وضرورتها كما يطلبها الروح القدس من الكنيسة بكل دقائقها وترتيبها وشكلها ونتائجها الحتمية، أما المضمون والممارسة العملية والتطبيق والحصول على النتائج الفعلية فقد ظلت كلها متعطلة تماماً على مستوى الجماعة، لا ينتبه لها إلا الأفراد وأفراد قليلون، الهيكل يشهد بذلك، فالمتناولون دائماً لا يزيدون عن واحد في المائة أو ربما أقل، مع أن الروح يدعو الجميع بلا استثناء للأكل من الجسد والشرب من الكأس لأنها دعوة حياة، والله لا يدعو للحياة بشح أو باستثناء أحد بل الكل مدعوون للخلاص: «خذوا كلوا منه **كلكم**، خذوا اشربوا منها **كلكم**» (القداس الإلهي)!!

والمدعوون للخلاص مدعوون مسبقاً للتوبة، ثلاث مرات ينادي الشماس في القداس حسب الأصول الكنسية المضبوطة داعياً الشعب والإكليروس للإعتراف بالخطيئة وإحناء الرأس لأخذ الحِلّ والبركة والتطهير: **الأولى** بعد رفع البخور في باكر وعشية، **والثانية** في بداية قداس الموعوظين، **والثالثة** قبل التناول مباشرة.

الأولى لأخذ الحِلّ، إما للإستحقاق لبدء أعمال اليوم بطهارة و بر في رفع بخور باكر وإما للإستحقاق للنوم بطهارة و بر في رفع بخور عشية.

والثانية في بداية قداس الموعوظين لأخذ الحل، لإستحقاق سماع الإنجيل المقدس بطهارة و بر حتى تسكن كلمة الحياة فينا.

والثالثة قبل التناول لإستحقاق الإشتراك في جسد المسيح ودمه بطهارة و بر مع جميع المتناولين كجسد واحد.

التوبة في القداس توبة جماعية، توبة شعب، توبة كنيسة بأكملها بإكليروسها ذي الطغمات السبعة، لأن الكل مدعو للإشتراك في جسد واحد ودم واحد. الكل مدعو أن يصير جسماً واحداً وروحاً واحداً، لذلك تحتم أن تكون التوبة مشتركة: الكبير والصغير معاً، الطفل والشيخ، الكاهن والقيِّم، الأسقف نموذج يحتذى، المسيح في غسله أرجل تلاميذه أشار إلى التوبة إشارة سرية، فالغسل عموماً هو غسل خطايا «اغسلني فأبيض أكثر من الثلج» (مز٥٠: ٧) الغسل في أصوله الأولى معمودية، المعمودية تطهير كامل من الخطايا بل هي بمثابة خلع جسم الخطية نفسه ولِبْسُ إنسان البر إنسان الروح.

ولكن لأن المعمودية لا تُعاد، إذ هي ولادة سماوية والولادة لا تتكرر، لذلك اكتفى المسيح بغسل أرجل تلاميذه قبل التناول من جسده المقدس ودمه الطاهر.

هنا غسل الأرجل بمثابة إعادة تطهير الأعضاء التي اتسخت، كناية عن رفع أثر الخطايا التي استحدثت بعد المعمودية فقط، والكلام على ذلك واضح من موقف بطرس الرسول، إذ لما امتنع بطرس عن غسل رجليه قائلاً: «لن تغسل رجلي أبداً»، أنذره المسيح أنه إذا لم يغسل له رجليه فلن يكون له نصيب معه، أي سيُمنع من الإشتراك في سر الإتحاد بجسده ودمه إذ تكون خطيته مازالت عليه: «إن كنت لا أغسلك فليس لك معي نصيب» (يو١٣: ٨). الغسل هنا بلا شك عمل جوهري إلى أقصى حد إذ يختص باستحقاق شركة الحياة مع المسيح وهو بلا شك عمل سري خالص. فغسل الرجلين في حد ذاته لا يمكن ولا يعقل أنه يؤهل صاحبه إلى نوال نصيب مع المسيح، إذن فهو عمل

سري، إجراء يتم في الظاهر على صورة مبسطة للغاية، غسل رجلين، وفي حقيقته يكمل استحقاق حياة أبدية، شركة في جسد ودم المسيح للإتحاد به ونوال نصيب دائم معه، الغسل هنا ينصبُّ بلا شك على الخطيئة ورفع آثارها المستجدة بعد المعمودية، لأن بطرس لما تمادى بعد ذلك في طلب غسل يديه ورأسه أيضاً وليس رجليه فقط بعد أن أزعجه إنذار المسيح، أجابه المسيح: «الذي اغتسل ليس له حاجة إلا إلى غسل رجليه بل هو طاهر كله وأنتم طاهرون ولكن ليس كلكم» (يو١٣: ١٠). هنا كلمة المسيح «**الذي اغتسل** ليس له حاجة إلا إلى غسل رجليه» يشير بها إلى غسل المعمودية، أي أن الذي اعتمد ليس له حاجة ــ عند التناول ــ إلا إلى غسل رجليه. وغسل الرجلين هنا هو سر إضافة تطهير لاحق على تطهير المعمودية السابق، أي غسل الخطايا المستجدة غسلاً سرياً بيدي الرب.

الكنيسة تذكِّرنا بغسل الأرجل حينما تأمر المتناولين بخلع أحذيتهم قبل الدخول إلى الهيكل. المسيح يباشر تطهيرنا في هذه اللحظات بغسلنا خفياً وسراً من خطايانا التي نعترف بها ونندم ونتوب عنها... وكان من ضمن الطقوس الأساسية في الكنيسة القبطية غسل الكاهن لرجليه قبل دخوله الهيكل بواسطة مرحضة نحاس كانت توضع على عتبة باب الهيكل الجانبي، ولكن هذا الطقس سقط من ترتيب الكنيسة بسبب الإهمال. أما غسل الكاهن لرجليه قبل بدء القداس فهو واضح جداً أنه جزء مكمل لسر الإفخارستيا بحسب الترتيب الذي باشره الرب بنفسه. وغسل الكاهن لرجليه يتضمن سر تطهير داخلي بعمل تواضع المسيح الخفي يؤهِّل للإشتراك في تقديم الذبيحة. وبهذا نجد أن الكاهن كان يباشر فعل توبة واغتسال وتطهير علني أمام الشعب!

وهكذا نجد أن روح القداس يقوم على توبة جماعية وانسحاق وتذلل واعتراف بالخطيئة يكون فيها الكاهن كمتقدم ونموذج صادق لكل الشعب، وإلا لا يتم الحصول على شركة ونصيب مع المسيح.

روح القداس وروح العصر:

لقد تغلب روح العصر على روح القداس، وروح العصر فردية استقلالية غير

نادمة على الخطيئة وغير منسحقة على وجه العموم. الإنسان الآن لا يشعر بأي التزام جماعي في أي شيء لا في توبة ولا في شركة جسد الرب ودمه، الإنسان الحار بالروح يخشى في الكنيسة أن يقرع صدره أو يظهر بروح انكسار وتوبة وندم، لأن ذلك يصبح شيئاً غريباً ومستغرباً. المتقدم للتناول يتقدم إلى الجسد والدم بصفة شخصية مفردة حرة من الجماعة، وكأن الأكل من الجسد والدم موضوع شخصي يأخذه الإنسان لخلاصه الخاص دون أي ارتباط بأي إنسان آخر. لقد فقدت الكنيسة أعز وأثمن صفاتها الروحية وهي كونها جماعة متحدة وجسماً واحداً، وفقد القداس أعز وأثمن مفاعيله وهو كونه سر توبة جماعية وسر اغتسال جماعي وسر شركة جماعية في جسد واحد ودم واحد، حيث عمل الجسد والدم الأساسي هو توحيد الجماعة لتصير جسداً واحداً. الكنيسة صارت مجرد موضع راحة نفسية لبعض الأفراد، والقداس انحصر في دائرة الخلاص الفردي.

إن فقدان هذا العنصر الجماعي من الكنيسة أو من القداس، وهو فقدان لمضمون الشركة في جسد المسيح، قد ضيع علينا كل الصفات والمميزات الروحية التي تلازم الجماعة كالنمو الجماعي والحب الجماعي والحرارة الجماعية والكرازة الجماعية والصلاة الجماعية كما من قلب واحد التي كانت أعظم مميزات الكنيسة الأولى... وهذا بالتالي عاد بأعظم الضرر والخسارة على روح المجتمع المسيحي والعالم كله.

الصوم واستعادة روح التوبة الجماعية في الكنيسة:

الكنيسة تنتظر الآن نهضتها بفارغ الصبر، ولكن نهضة الكنيسة يستحيل أن يفتعلها أفراد. قد تبدأ حركة النهضة في الكنيسة بانتباه مبكر لبعض الأفراد، ولكن النهضة على وجه العموم يلزم أن تكون حركة جماعية. الروح القدس إذا نبه فرداً واحداً أو عدة أفراد في الكنيسة فهذا يكون للتبكيت والتوبيخ فقط، ولكن إذا نبه جماعة أو عدة جماعات فهذا معناه أن روح بعث وتجديد قد سرت في الكنيسة لبدء عصر نهضة واستنارة.

الروح القدس طيب ووديع جداً، ويمكن أن يُستدعى ليعمل في الجماعة شريطة أن تكون الجماعة مجتمعة بنفس واحدة وروح واحد تحت تبكيت الضمير والندم وطلب التوبة والإستغفار عن كل خطايا الكنيسة والعالم.

إن فرصة الصوم المقدس الذي سنبدأه هذا الشهر ونحن على أعتاب حرب، تلزمنا أن نتخذ قراراً حاسماً في الموضوع، فالخطر يتعدى الخسارات المادية. إن تراثنا التقليدي كله سواء الإجتماعي أو الخلقي أو الروحي أو اللاهوتي مُعرَّض لهزات عنيفة قد تقلبه قلباً. فلنتنبه ياإخوة جداً ونأخذ بكل جد واهتمام معنى الحرب وإمكانية استمرارها سنين عديدة وما تخلفه من انقلابات وتغييرات جذرية تشمل كل ميراثنا التقليدي.

قد تكون التوبة الفردية عملاً شخصياً يتوقف على رغبة الإنسان ومزاجه واستعداده ومثابرته، ولكن التوبة الجماعية فرض والتزام على الكنيسة بالنسبة للوطن وللعالم. الكنيسة كجماعة، مسئولة مسئولية مباشرة عن الوطن وعن العالم. الكنيسة موضوعة في العالم لتفتديه...

الفرد يصوم عن نفسه، بالجهد قد يصوم إنسان عن آخر، ولكن الكنيسة عليها أن تصوم من أجل العالم، الصوم والصلاة قدّمه كل الشعب في نينوى بتوبة صادقة وانسحاق، فنجت نينوى. سدوم وعمورة لم تصليا، ولم تصوما، ولم يوجد فيهما من يصلي أو يتوب، فهلكتا واحترقتا بكل من فيهما!!

الحاجة في هذه الأيام إلى صوم جماعي وتوبة جماعية حتى تنجو مصر و ينجو العالم مما ينتظره!

(فبراير ١٩٧٢)

الصوم المقدس وثماره المشتهاه

موسم اعتكاف والتقاء مع الله، رسمته الكنيسة تشبُّهاً بالرب يسوع عندما رجع من الأردن بعد العماد ودخل البرية وحده في عزلة كاملة عن العالم أربعين يوماً يصلي فيها مجاهداً ضد الشيطان، وفي أثناء هذه المدة لم يأكل شيئاً...

في الواقع إن الكنيسة تقدم لنا في هذا الموسم المقدس الجو الروحي اللازم والمناسب جداً بالقراءات والألحان والعظات للدخول في مثل هذا الإعتكاف الداخلي والإعتزال القلبي عن العالم لنلتقي أولاً مع أنفسنا ثم مع الله...

كيف نلتقي مع أنفسنا:

من العسير جداً على أي إنسان أن يلتقي مع نفسه في مواجهة داخلية كاشفة طالما هو يمارس حياته اليومية الروتينية من أكل حتى الإمتلاء، وحديث لا يهدأ، وانشغالات جانبية تافهة، وتسليات وجرائد وفسح ونوم وزيارات. لذلك أصبح اختزال كل ما هو غير هام أمراً ضرورياً في الصوم المقدس، حتى تتهيأ لنا فرصة للإعتكاف الداخلي.

ستواجهنا صعوبة حتمية عند البدء في تقليل الأكل أو تقليل الكلام، أو تقليل الخروج من البيت أو تقليل ساعات النوم. ولكن يلزمنا جداً أن ندرك من البدء أن هذه الصعوبة مرجعها إلى سببين:

أولاً: حكم العادة، والتغلب عليها أمر هين، **وثانياً:** رغبة النفس الشديدة في الهروب من الإعتكاف خوفاً من مواجهة حقيقتها الخاطئة ورغبة منها في الإستمرار في انحلالها وتلذذها بالخطايا، وهذا أمر يحتاج إلى صرامة وحزم شديدين وانتباه للأعذار الواهية والكاذبة التي ستخلقها باستمرار للهروب من الإعتكاف والصوم.

فإذا نجح الإنسان في التغلب على عاداته، ثم نجح في السلوك بصرامة وحزم وانتباه

تجاه أعذار النفس ومراوغاتها، واستطاع أن يوفر لنفسه فرصاً للهدوء والإعتكاف والصلاة؛ يكون قد نجح فعلاً في الدخول في بركات الأربعين المقدسة وتهيأ لكي يجني ثمارها. وثمار الإعتكاف ومواجهة النفس كثيرة، وأهمها إثنتان:

الثمرة الأولى:

اكتشاف مدى الخسارة التي أصابتنا بسبب التواني والإهمال والكسل في الحياة الروحية الناتج من عدم جدة نظرتنا للحياة، والناتج أيضاً من الهروب من فرص الإعتكاف والصلاة.

وسوف نتحقق بأنفسنا و بدون وعظ كيف أن التواني والإهمال والكسل وهروب النفس من الإعتكاف أفسد حياتنا وضيع علينا فرصاً كثيرة للنمو الروحي، بل وأوقعنا في انحلال وخطيئة وجعل حياتنا في النازل...

ولكن أخطر ما ينتج عن التواني والإهمال في الصلاة والكسل الروحي الذي يصيب القلب و يبلد الذهن هو التوهم الخاطىء الذي يصيب فكر الإنسان وإرادته فيعتقد أنه غير قادر على تغيير نفسه وأن لا فائدة من محاولا ته. لأن الإهمال والكسل يتسرب إلى كل محاولة للتغيير والتجديد فيبطلها.

لذلك فإن اكتشاف حالة التواني والإهمال والكسل عند بدء الإعتكاف ومواجهة النفس وتفتيشها يعتبر من أعظم أعمال الإعتكاف ومن أشهى ثمرات الصوم المقدس. وهو بمثابة قلع الجذر المسموم الذي يغذي الحياة الروحية بالإستهتار أولاً بأول، ويمدها بفقدان الثقة بالنفس و بالله، وهو الذي يوقف جهاد الإنسان شيئاً فشيئاً كلما تقدمت به الأيام حتى يوصله إلى اليأس، أما اليأس الذي ينتهي إليه التواني والإهمال والكسل فهو مجال الشيطان الذي يعبث فيه و يصول ويجول ليبدد كل رجاء الإنسان وخلاصه.

الثمرة الثانية:

اكتشاف مدى الخطأ والإنحراف الذي أصاب الهدف الروحي الذي نعيش له.

لأن أي انحراف في الهدف الذي نسير نحوه من شأنه أن يعرقل مسيرتنا و يلقينا في مشاكل وارتباكات وأوهام كفيلة أن تجعل طريقنا في النهاية مسدوداً بالرغم من مظاهر النجاحات التي نظهر بها أمام الناس. لأن بقدر وضوح الهدف تكون بالتالي سهولة المسير نحوه! و بقدر الأمانة والإخلاص لهدفنا تكون ثقتنا و يكون رجاؤنا وتكون شجاعتنا وتكون قوتنا!!

ونحن لا نملك و يستحيل أن نملك هدفاً صحيحاً سوى المسيح نفسه، المسيح هو هدفنا الذي نعيش له ونموت له، كما يقول إشعياء النبي: «إلى اسمك وإلى ذكرك شهوة النفس. بنفسي أشتهيتك في الليل أيضاً بروحي في داخلي إليك أبتكر» (إش٢٦: ٩). فإذا لم يكن المسيح نفسه هو هدف حياتنا بكل وضوح وأمانة وإخلاص القلب والنية، فإن العالم سيكون هدفنا، وستكون الذات وعظمتها وكبرياؤها هي هدفنا، وستكون الأرصدة المالية الكبيرة هدفنا، وسيكون مديح الناس هدفنا، وحينئذ ستكون المسيرة مفضوحة والطريق معوجة. وسوف أكتشف أن إرادتى أصبحت أهم عندي من إرادة الله ومشيئتي قبل مشيئة الله، وحيث لا يعود الله هو شهوتى، بل كرامتي وقوتى ومالي هي شهوتى!... ولا تعود نفسي تستسيغ أن تخضع لعبيد الله أو أن أستعبد ذاتى لخلاص الآخرين، بل على النقيض أستعبد كل شيء لذاتى... لأن المسيح كهدف لم يعد موجوداً، بل نفسي!!

فإذا اكتشفنا مدى الإنحراف والخطأ الذي أصاب هدف حياتنا، نكون قد حصدنا الثمرة الثانية للإعتكاف وهي ثمرة عزيزة جداً لا تقدر بثمن، لأنها ستقنعنا بتغيير الحياة مهما كلفنا الأمر، بل وإذا لزم الأمر نرفضها وننبذها غير آسفين على نجاحها الظاهري الكاذب، كما نبذ القديس مار اسحق أسقفية نينوى العظمى عند لحظة اكتشاف ضياع الهدف، وانطرح في عمق البراري معتكفاً متوحداً فصار خلاصاً لنفسه ولمئات الألوف على مدى الأجيال!...

*

كيف نلتقي مع الله:

إن مجرد اكتشاف أنفسنا على حقيقتها واقتناعنا بسوء حالتنا ومقدار الإنحلال الذي أصابنا سيطرحنا في الحال أمام باب الله بندامة مُرَّة وحسرة واستعداد لتوبة صادقة، وسوف نتحقق بأنفسنا أنه لا سبيل إلى الدخول في حضرة الله إلا من هذا الباب، باب الندامة والتوبة!! وهكذا كما خرجنا بجهالتنا من حضرة الله عن طريق باب الإهمال والتواني والكسل الروحي، هكذا يُنعَم علينا بالعودة إلى الله من باب الندامة والتوبة الذي ينفتح لنا في الإعتكاف!! وحينئذ سنواجه الله ونحن في حالة أسف شديد وخزي كخزي آدم وحواء عند سماع صوت الله وهما عريانان، وقد استقرت في بطنها ثمرة العصيان.

ولكن الله لا يسر أبداً بعري الإنسان!! فهو ينادينا في سفر الرؤيا ليسترنا بثوب نعمته، كما نادى آدم وحواء في سفر التكوين وسترهما بثوب الجلد: «أشير عليك أن تشتري مني ذهباً مُصفًّى بالنار لكي تستغني، وثياباً بيضاً لكي تلبس فلا يظهر خزي عريتك!!» (رؤ٣:١٨). وهكذا كما عرتنا جهالتنا بالتواني والإنحلال وأبعدتنا عن الله، هكذا تسترنا نعمته عند توبتنا ودخولنا إليه.

أما ثمار الإلتقاء مع الله في الإعتكاف فهي كثيرة، ولكن أهمها ثمرتان:

الثمرة الأولى:

جدية النظرة الروحية إلى الحياة، وعظم أهمية الخلاص، مع نشاط دائم لا يفتر، يصحبه وعي وانتباه وحذر وحساسية شديدة ضد أي إنحراف أو انحلال أو استهتار أو نجاسة!! وهذه من أهم وأعظم الثمار التي نجنيها في اعتكافنا والتي ستلازمنا مدى الحياة كلها كزاد للطريق يمدنا بكل القوة الدافعة اللازمة للمسير!!

هذه الثمرة المشتهاة جداً والتي يتنعم بها كل أولاد الله الذين تابوا ورجعوا إليه بصدق وإخلاص ليست من صنع أيدينا، أي أنها ليست ثمرة مطبوخة. ولكنها نعمة تأتينا على

يد الله، بعد أن نكون قد اقتنعنا تماماً أنه لا رجاء ولا خلاص لنا، إذا لم يهب لنا الله مثل هذه النظرة الجدية للحياة الروحية و يعطينا هذا النشاط الروحي وهذا الإنتباه والحذر والتدقيق والحساسية ضد أي انحراف أو انحلال أو نجاسة في أي صورة من صورها. أي أن صدق اقتناعنا بلزومية هذه الأمور وشهوتنا الجارفة لإمتلاكها وتوسلنا الحار الباكي من أجلها، هو المؤهل الوحيد الذي يؤهلنا لإمتلاكها!! فهي ثمرة على شجرة الحياة تُشتهى بالحق، وصدق شهوتها هو الذي يجعلها تسقط في أيدينا!...

الثمرة الثانية:

هي ثمرة الحب الإلهي، في الإعتكاف نحن نحبس أنفسنا في مجال الحب الإلهي. وعندما نواجه أنفسنا ونكتشف جحودها وفجورها، ثم ندينها دينونة صادقة وكاملة في حضرة الله، ونندم في التراب ونبكي على زمان الجهالة، ونتوب بإخلاص أمام الرب؛ تنفتح طاقات حبه الإلهي علينا، لأنه لا يطيق أن يحبس حبه عن العائدين إليه من الكورة البعيدة، إنه يمسح دموعنا بيديه، وعوض الكآبة المرة يمسحنا بدهن البهجة للخلاص أكثر من رفقائنا. و بينما نحن نحكي له عن مقدار جحودنا وفجورنا وجهالتنا يكون هو قد أعد لنا سراً وليمة عرسه. نحن نحكي أمامه عن فجورنا، وهو يحكي لنا عن إخلاصه. نحن نئن من ثقل جحودنا، وهو يئن من ثقل حبه!! وهكذا يظل يلح علينا بحبه حتى يغلب ضعفنا وتتحول دموعنا المحرقة بألم التوبة إلى دموع الفرحة المشرقة ببهجة الخلاص الأبدي. وهكذا يثمر الإعتكاف ثمرته العظمى التي تدوم لنا إلى الأبد ثمرة الحب الإلهي، وقود الخلود، النار التي ألقاها الرب على أرض الشقاء، لتحوّل شقاءنا إلى سعادة أبدية في سر لا يدركه إلا التائبون العائدون.

إن الأربعين المقدسة هي موسم عودة النفس إلى مكان راحتها الحقيقية: «ارجعي يانفسي إلى موضع راحتك» (مز١١٦:٧)، فيه تظل الكنيسة بألحانها على طول الأربعين يوماً تنادي النائمين والتائهين في طرق الخطية وشعاب الضلال أن استيقظوا واستنيروا وارجعوا فهذا زمان التوبة، زمان خلاص و وقت مقبول، زمان نور لا ظلام. الكنيسة هي العروس المزينة بالروح القدس، وفيها يجتمع العائدون من الكورة البعيدة

يأكلون و يشربون من فضائل العريس، من وليمة التوبة وسر الخلاص، ينعمون بالنجاة في حضن المسيح المريح، يلتصقون به، يتبعونه أينما ساروا، يتلقنون منه كلمات المحبة و يصيرون له عاشقين، ولا يعودون يحبون شيئاً آخر غيره ولا حياتهم حتى الموت!! ألم يقل الوحي قديماً إن المحبة أقوى من الموت؟ ولكن من يدرك هذا و يتذوقه إلا العاشقون!

الكنيسة استودعها المسيح كل قاماته، والروح فيها يأخذ كل قامة للمسيح و يعطينا، قامة العماد وقامة الصليب وقامة القيامة. وفي الأربعين المقدسة تسلم الكنيسة لأولادها قامة صوم المسيح واعتكافه، سر عزلته عن العالم وعزوفه عن الناس والأقارب وحتى التلاميذ والصحاب، سر هجرة العالم من أجل العالم، سر التخلي عن الكل من أجل الكل!! سر الصوم وحرمان النفس والجسد من أجل خلاص كل نفس وكل جسد!!

المسيح لم يكن في الأربعين التي قضاها في البرية وحده محتاجاً إلى اعتكاف من أجل نفسه ولا إلى صوم من أجل نفسه، لأنه في سياق الكلام قيل أنه لما رجع من الأردن وهو ممتلىء من الروح القدس انطلق إلى البرية وحده، واضح إذن أنه وهو ممتلىء من الروح القدس — وهو لم يكن في وقت من الأوقات غير ممتلىء — لم يكن في حاجة وقتئذ إلى رحلة في البرية أو إلى عزلة لنفسه أو صوم وصلاة!! ولكنها كانت رحلة البشرية كلها فيه!! لقد أخذ المسيحُ الإنسانَ — كلَّ إنسان — معه، فيه، ليدخل بالبشرية في عزلة عن ذاتها وعن عالمها الذي أضلها ليقدمها إلى الله بمعزل عن شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظم المعيشة، ليجوز بجسد الإنسان حرماناً إرادياً عن الأكل والشرب والراحة وكل شهوة، في برية قفر، لا عزاء فيها للجسد، حتى يوقظ النفس إلى شهوتها الحقيقية في الله و يطل بها إطلالة أبدية على سماء الله وطنها الحقيقي، و يطعمها و يسقيها عزاء الخلود عوض طعام الأرض...

البشرية جازت في المسيح خبرة الإعتكاف والعزلة وتجربة الصوم والحرمان كمرحلة أساسية من مراحل القامات الروحية اللازمة للإنسان من بعد المعمودية لبلوغ الصليب والقيامة!... الكنيسة في الأربعين المقدسة تسلم هذا السر عينه، سر خبرة

الإعتكاف والعزلة وتجربة الصوم والحرمان. إنه السر الذي أكمله المسيح والذي صار لنا بكل بركاته. الروح في الأربعين المقدسة يأخذ كل ما حققه المسيح من نصرة على الشيطان في معارك شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظم المعيشة، و يعطينا لتكميل قامة هامة وأساسية من قامات ملء المسيح فينا، إعداداً للسر الأعظم سر الصليب، وتمهيداً للملء الأعظم ملء القيامة!!

(أبريل ١٩٧٣)



في بدء الصوم الكبير

رسالة إلى الرهبان (٥)

في بدء هذا الصوم المقدس أُذكّركم أن منهج آبائنا السعداء بالرب يقوم أساساً على النسك، والنسك هو حفظ الإنسان لنفسه وجسده وروحه مقدسين للرب بمؤازرة **النعمة**، وفاعلية **الكلمة** وسلطان **السر** الإلهي.

١ ــ **أما مؤازرة النعمة** فهي مجانية تُطلَب فتُعطَى لمن يطلب و يسأل و يقرع باب تحننات الرب، حسب قول المخلص: «فمن منكم وهو أب يسأله إبنه خبزاً أفيعطيه حجراً؟ أو سمكة أفيعطيه حية بدل السمكة، أو إذا سأله بيضة أفيعطيه عقرباً؟ فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة فكم بالحري الآب الذي في السماء **يعطي الروح القدس للذين يسألونه**» (لو١١: ١١ــ١٣). وهكذا ينبه الرب قلوبنا أن **الآب هو الذي يعطي الروح القدس مجاناً** بمقتضى السؤال والطلبة وذلك طبعاً بدالة إبنه يسوع المسيح ربنا. والروح القدس في النسك هو بمثابة الربان في المركب.

٢ ــ **أما فاعلية الكلمة** في الإنجيل المقدس فهي للتطهير، تطهير النفس والجسد والروح، وذلك إذا أُخذت مأخذاً جدياً، حيث تصبح حارقة كالنار وطارقة كالمطرقة كقول الله على لسان إرميا النبي: «ما شأن التبن مع الحنطة، كلمتي **كنار وكمطرقة** تحطم الصخر» (إر٢٣: ٢٨، ٢٩).

بل وتكون الكلمة خارقة أيضاً كالسيف ذي الحدين، ينفذ مخترقاً الفواصل السرية التي تفرق بين النفس والروح فتفضح ما تتعلل به النفس كأنه من الروح وهو

(٥) هذه الرسالة موجهة إلى رهبان ولكنها تصلح للجميع.

علة ومرض فيها، وتسري الكلمة بخفة ونفاذ أحدُّ من السيف لتبلغ الخطايا المخبوءة حتى إلى نخاع العظام والمستورة بين طيات المفاصل وعُقد النفس! وتكشف الكلمة ما احتفظ به الضمير عبر السنين وما استتر في القلب بعيداً عن النور!

ولكن لا تستطيع الكلمة أن تصنع هذا كله إلا بتحريك النعمة لغاية واحدة وحيدة هي تسليم الحياة لله.

٣ ــ **أما سلطان السر الإلهي** فهو عمل المسيح الخصوصي للأخصاء، لبني سره، حيث ينضح عليهم من دمه فيحتويهم سر الفداء و يدخلوا النور الإلهي كقول القديس يوحنا الرسول: «إن سلكنا في النور كما هو في النور فلنا شركة بعضنا مع بعض ودم يسوع المسيح إبنه يطهرنا من كل خطية» (١يو١: ٦).

وفي هذا الصوم المقدس تتجمع هذه الوسائط النسكية الثلاث: **النعمة، والكلمة، والسر**، بقوة غير عادية بسبب أن المسيح يتقدمنا بنفسه في هذا الموكب النسكي صائماً معتزلاً مصلياً. وكان الآباء يتبارون في هذا الصوم لبلوغ حالات من اليقظة الروحية و يدركون أعماق الأسرار والمواهب الروحية التي كانت تنعش الكنيسة كلها سنة بعد سنة. فكانت غيرتهم النارية وحبهم الإلهي يشعل قلوب الشباب والمبتدئين، و يأكل توانى المتوانين، ويمسح الصدأ عن القلوب التي تخلفت فتقوم وتجري وتجدد العهد، وكانت رؤية المسيح على جبل الصوم كقائد ناسك مظفر تلهب الكنيسة برمتها...

ولكن لأن حالنا قد صار ردياً بسبب ضياع هذه الرؤيا والإستهتار بركائز النسك الثلاث **النعمة والكلمة والسر**، صار منهج آبائنا في النسك لا يأتي بثماره المرغوبة، ولا تنتفع منه الكنيسة شيئاً، وانقلب إلى موسم وعظ وصياح بعد أن كان حركة ومسيرة وتغييراً وتجديداً وانسكاباً خفياً لنعمة الله في كل كنيسة و بيت.

لذلك قد صرنا مثل الكرم الذي كثرت فروعه وأوراقه وقل جود إثماره فظهر جميلاً من الخارج ردياً من الداخل. بمعنى أنه أصبح لنا شكل التقوى ولكننا لا نملك

قوتها أو بمعنى أكثر صراحة أننا صرنا أتقياء في أعين الناس وأعيننا، وصدَّقَنا الناس وصدَّقْنا أنفسنا واكتفينا وفرحنا. ولكن في حقيقة حالنا لا نحمل قوة التقوى ولا فاعليتها، فالهالك لا نقوى على إنقاذه، والساقط لا نستطيع أن نقيمه، والمكسور والمريض لا نملك شفاءه، وحتى الضعيف لا نطيق احتماله!...

بل و ياليتنا لما علمنا ذلك انسحقنا وآمنَّا بنقصنا و بوار حالنا ووقفنا نتضرع أمام الله أن يشفي سقمنا برحمته ويجبر عجزنا بنعمته و يتدخل هو بذراعه ليصنع خلاصاً بقوته واقتداره. ولكن عوض البكاء والتوسل عن الذين يسيرون مسرعين في طريق الموت والهلاك اكتفينا بخلاص أنفسنا وغمضنا أعيننا وسددنا آذاننا حتى لا نرى ولا نسمع عدد الذين يهلكون كل يوم ربوات وملايين، نصلي السواعي وننام مرتاحي البال والضمير، ألسنا رهباناً جئنا لخلاص أنفسنا فما لنا وخلاص الخطاة الزناة الأشرار الأردياء؟ عندما نرى أو نسمع عن الشباب الذي يسقط كل يوم بالملايين بين أيدي لصوص المخدر والجنس، نجوز بفكرنا سريعاً غير مبالين، ندخل قلالينا بقلب رضي هني لا نئن ولا نتنهد ولا نتوجع، وقصة السامري واللصوص نمثلها بإتقان مذهل بأكثر هوان واستهتار من الكاهن واللاوي فيها، وكأنما صلوات السواعي وقيام نصف الليل والسجدات ــ قلَّت أو كثرت ــ كفيلة أن تعفينا من تحذير الله المخيف على فم حزقيال النبي: «وقال الرب أعبر في وسط المدينة في وسط أورشليم **وَسِمْ سِمَةً على جباه الرجال الذين يئنون و يتنهدون على كل الرجاسات** المصنوعة في وسطها. وقال لأولئك ــ في سمعي ــ اعبروا في المدينة وراءه واضربوا، ولا تشفق أعينكم، لا تعفوا الشيخ والشاب والعذراء والطفل والنساء، اقتلوا للهلاك **ولكن لا تقربوا من إنسان عليه السمة**، وابتدئوا (الضرب) من مقدسي» (حز ٩: ٤ و ٥).

وهكذا كل الذين لم يحملوا همَّ خطايا الشعب ومفاسده، ولم يتنهدوا ولم يئنوا على هلاك الخطاة ساواهم الله بصانعي الرجاسات سواء بسواء إذ أجاز قتلهم!!

فياو يلنا ياإخوتنا إن كنا لا نحمل همَّ الخطاة، ولا نئن ونتنهد الليل والنهار أمام الله في حزن وبكاء في المسوح والتراب كما فعل آباؤنا ونجوا. نصرخ أمام الله بتوجع من

أجل الخاطىء كابن وحيد لنا، بل و ياو يلنا إن كنا لا نقف بعزم القلب على أهبة الإستعداد، أتم الإستعداد، أن نسلم كل وقتنا وحياتنا ثمناً لعودة الخطاة لحضن المسيح.

وها هوذا يجيء موسم الصوم في هذه السنة والعالم كله يتطلع إلى من يخلِّص، فالضربة بلغت من القدم للرأس، والحال بلغ إلى نزاع الموت الأخير والكل يتطلع إلينا طالباً المعونة بل طالباً برهان الحياة التي فينا، ألسنا رهباناً نموت عن العالم كل يوم؟ ولكن ياحزني فنحن لا نملك إلا دموعنا وصرنا كالشجرة التي تعوقت عن إعطاء الثمر في أوان الثمر وصار مصيرها في خطر، لأن صاحب البستان يطلب إخلاء الأرض لولا البستاني الكريم الذي وقف يتشفع فيها هذه السنة أيضاً!!؟

لذلك أدعوكم بفم يوئيل النبي: «أضربوا بالبوق في صهيون، **قدسوا صوماً، نادوا باعتكاف، اجمعوا الشعب، قدسوا الجماعة، احشدوا الشيوخ، اجمعوا الأطفال وراضعي الثدي، ليخرج العريس من مخدعه، والعروس من حجلتها، ليبكِ الكهنة خدام الرب بين الرواق والمذبح و يقولوا اشفق يارب على شعبك، ولا تسلم ميراثك للعار، لماذا تجعلهم للأمم مثلاً، لماذا يقولون بين الشعوب أين إلههم؟**» (يؤ ٢: ١٥ــ١٧).

«ولكن الآن يقول الرب **ارجعوا إليَّ، بكل قلوبكم، وبالصوم، والبكاء، والنوح، مزقوا قلوبكم** لا ثيابكم وارجعوا إلى الرب إلهكم لأنه رؤوف رحيم بطيء الغضب وكثير الرأفة... **ويكون بعد ذلك إني أسكب روحي على كل بشر**» (يؤ ٢: ١٢و١٣و٢٨).

إذن **فحملُ الصلاة** عن الكنيسة كلها والعالم كله ملقى عليكم، الله هو الذي وضعه علينا مع كل تبعاته وتكاليفه الباهظة جداً، لأنه مطلوب صلاة تحرك السماء، صلاة بمعاناة وآلام وأحزان عميقة، صلاة بعرق يتصبب كصلاة جثسيماني، صلاة بمخاض كمخاض الولادة، كما شبهها بولس الرسول بمخاض الحبلى إلى أن يتصور

المسيح في الخطاة فيولدوا!! أنتم هي البطن التي وضع عليها أن تحمل بالخطاة متوجعة حتى يأتي الطلق بقوة الروح القدس من الأعالي فتلدهم الكنيسة في سنة مقبولة وزمن خلاص. **لقد صلينا كثيراً ولكن لم نصلِّ الصلاة المطلوبة، صلاة التوقّع التي ما تنتهي إلا بالإستجابة!** فالأمر إلتزام هو وليس اختيارٌ، فالخاطىء إما يذهب إلى الهلاك وإما يولد للحياة الأبدية، الفرق شاسع ونحن مسئولون.

ها أنا أقول لكم مثلاً: إن رأيت طفلاً صغيراً لا يدرك شيئاً يقف على طريق قطار قادم بسرعة وأمامك فرصة ضيقة لإنقاذه فهل تتركه؟

ولكن ما بالك لو قلت في نفسك ما شأني وحياة طفل، أنا راهب أطلب خلاص نفسي، ولم تجرِ لتنقذه، هل تخلص نفسك؟ وماذا تكون نظرة العالم ونظرة أمه نحوك؟ هذا سؤال مرعب!

ولكن هل التواني في إنقاذ إنسان من الهلاك الأبدي وهو خاطىء لا يعرف مصيره، أقل رعبة من التواني في إنقاذ طفل من تحت القطار؟

هل التواني في إنقاذ كنيسة برعاتها وخدامها من روح اللامبالاة من جهة خلاص الهالكين أقل رعبة من التواني في إنقاذ طفل من تحت القطار؟

ثم هل التواني في إنقاذ أرواح الشباب والشابات الذين يهلكون بالملايين في العالم كله أقل رعبة من التواني في إنقاذ طفل من تحت القطار؟

أليست هذه خطيئة عظمى أن لا نحس بهلاك الخطاة ولا نتحرك ولا نتوجع؟ ثم أليست هذه الخطية بالذات هي التي أوقفت عمل الروح القدس في الكنيسة؟

بل وهذه الخطية بالذات هي التي أدخلتنا في الظلمة وأصبحنا لا نعلم الطريق ولا إلى أين نمضي لأن الظلمة ـ ظلمة عدم المبالاة بالقريب الهالك ـ أعمت أعيننا؟ كيف نقول أننا نعيش في النور ونسلك في النور ونحن لم نحب أخانا بل أبغضناه بغضة الموت لأننا تركناه يهلك ولا نحرك ساكناً، إلا أننا نكذب وليس الحق فينا إن قلنا بعد

ذلك أننا نحب الله أو القريب؟

حقاً جيد أن نخلص أنفسنا، ولكن هل جيد أن يهلك أخونا ونحن نملك بالصلاة إمكانية خلاصه بل وخلاص الملايين؟

تقول أنا راهب وما هي مسئوليتي تجاه من لم آخذ مسئوليته «أحارس أنا لأخي» (تك ٤: ٩)، إن المسئولية تجاه الخطاة تقع على الكهنة ورؤسائهم الذين أقاموا أنفسهم رعاة لهم. ولكن يرد علينا الرب على لسان إشعياء النبي و يضعنا في موضع المسئولية العظمى: «على أسوارك يا أورشليم أقمت حراساً لا يسكتون كل النهار وكل الليل على الدوام، يا ذاكري الرب لا تسكتوا ولا تدعوه يسكت حتى يثبت أورشليم (الكنيسة) ويجعلها تسبحة في الأرض كلها» (إش ٦٢: ٦و٧).

تقول ومن أنا حتى أحرس الكنيسة كلها والعالم؟ ماذا تفيد صلاتي للملايين وأنا رجل خاطىء، إن هذا العمل فوق طاقة البشر أليس هو عمل السماء؟ ولكن الكتاب يرد علينا مستشهداً بإيليا و يقول: «كان إيليا إنساناً تحت الآلام مثلنا وصلى صلاة أن لا تمطر السماء فلم تمطر على الأرض ثلاث سنين وستة أشهر ثم صلى أيضاً فأعطت السماء مطراً وأخرجت الأرض ثمرها» (يع ٥: ١٧) فهل السماء تسمع وتستجيب لأمر الإنسان من جهة المطر لحياة الزرع والضرع ولا تسمع وتستجيب من جهة خلاص الإنسان وحياته الأبدية؟ ثم ألم يقل الكتاب أن روح إيليا تقدم أمام الرب لتعدّ له طريقاً، وهل انتهى الطريق؟ ألستم أنتم إيليا هذا الزمان؟ وهل الصلاة مجازفة؟ أليست لتمجيد الآب!!؟

ولكن من جهة أخرى الرب يؤمّن استجابة الصلاة **بتأكيد** وضمان شخصي لإتيان المعجزة وفتح السماء: «**الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي** فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضاً و يعمل أعظم منها لأني ماضٍ إلى أبي **ومهما سألتم باسمي فذلك أفعله** ليتمجد الآب بالابن، إن سألتم شيئاً باسمي فإني أفعله» (يو ١٤: ١٢ــ١٤).

وهنا يتكشف لنا أن القضية ــ قضية الصلاة واستجابتها ــ انحسرت في أضيق نطاق، فالمسيح جعل شرطها الوحيد: «**من يؤمن بي**».

إذن فهلاك الخطاة يتحدى إيماننا، والشيطان يتحدى إيماننا، بل ومحنة العالم كله هي بسبب عدم إيماننا، ونوم الكنيسة وضعف الرعاة هو من صنع ضعف إيماننا!!

فهل نصمت إزاء هذا التحدي؟ أنقبل على أنفسنا دينونة هؤلاء الهالكين! بولس الرسول يدعوكم: «جربوا أنفسكم هل أنتم في الإيمان؟؟ امتحنوا أنفسكم أم لستم تعرفون أنفسكم أن يسوع المسيح هو فيكم؟» (٢كو١٣: ٥).

إذن هل آن الأوان أن نصارع مع الله في الصلاة حتى مطلع الفجر أو حتى الموت؟ فيتزكى إيماننا و يستجيب الصلاة، وتأتي المعجزة وتنفتح السماء، و يرسل الله قوة من الأعالي تحرك الكنيسة كلها لتكميل الخلاص بسلطان الروح و بقوة وحرارة فيعترف الجميع و يتوبوا و يقبلوا عطية الله كالأول حتى تأتي أزمنة الفرج من عند الرب (راجع أع٣: ١٩).

لماذا فقدنا روح آبائنا وروح أنبيائنا هؤلاء الذين حركوا السماء بل حركوا قلب الله؟ فهل عسير علينا أن نعمل ما عمل دانيال: «فوجهت وجهي إلى الله السيد **طالباً بالصلاة والتضرعات بالصوم والمسح والرماد** وصليت إلى الرب إلهي **واعترفت...** و بينما أنا أتكلم وأصلي وأعترف بخطيتي وخطية شعبي إسرائيل وأطرح تضرعي أمام الرب إلهي... وأنا متكلم بعد بالصلاة إذا بالرجل جبرائيل... لمسني وفهمني وتكلم معي وقال... **في إبتداء تضرعاتك خرج الأمر** وأنا جئت لأخبرك لأنك محبوب» (دا٩: ٣ــ٢٣).

والله استجاب لدانيال استجابة فورية.

أو هل صعب علينا ما فعله نحميا: «فلما سمعت هذا الكلام **جلست، وبكيت، ونحت أياماً، وصمت، وصليت أمام إله السماء...** وقلت ياسيد لتكن أذنك مصغية إلى صلاة عبدك وصلوات عبيدك الذين يريدون مخافة إسمك، اعطِ النجاح اليوم...»

(نح١: ٤ــ١١) ونعلم أن الله استجاب لنحميا جداً وأنجح كل مسعاه لتجديد أورشليم.

ثم هل نحن بكل مذخرات النعمة وعمل الدم الإلهي ومجد الصليب وظفر القيامة ومواهب يوم الخمسين أقل من أنبياء العهد القديم؟

أعود فأذكّركم، ياأحباء الرب، أن العيب والملامة ليست في الكنيسة النائمة، ولا في الشباب المنحل ولا في العالم المستبيح، ولكن العيب فينا والملامة علينا نحن الذين أقامنا الله حراساً بالصلاة على أسوار أورشليم نحرس الكنيسة في نوباتنا السواعية الليلية والنهارية فانشغلنا فيا لأنفسنا فارتدت صلاتنا إلى حضننا...

ولكن شكراً لله الذي لا يزال يلح طالباً يقظتنا مرسلاً صوته لنا في بداية الصوم الأربعيني موسم الصلاة والبكاء والنوح والتوبة ولبس المسوح والجلوس على الأرض كالأيام الأولى، والكنيسة من حولنا تردد ألحانها الحزينة وكأنها تذكرنا بالضحايا الذين خرجوا من حضنها ولن يعودوا وكأنها توقظ فينا عقدة الذنب لعلنا نقوم ونغير غيرة الرب لنحفظ ما بقى.

(مارس ١٩٧٦)



الصوم وحياة الإقتداء بالمسيح

الكنيسة تعيش على الإقتداء بالمسيح. كل ما عمله المسيح تعمله الكنيسة ليصير حياتها. إن الدعوة التي ألقاها المسيح على متى الرسول: «اتبعني» (مت٩: ٩)، كان يقصُد بها المسيح أن يقول للقديس متى: «خذ حياتي لك». وقد أخذت الكنيسة هذه الدعوة كمنهج لها...

الصوم في حياة وأعمال المسيح يأخذ مركز الصدارة كأول استجابة لعمل المسحة والإمتلاء بالروح. فهو يشكل المعركة الأولى التي أنهى فيها على خصمه — رئيس هذا العالم. وعلى ضوء خبرة المسيح بعد أربعين يوماً صوماً كاملاً، أسكت فيها صوت الشيطان، يضع لنا أساس تعاملنا مع عدو جنسنا بكل مغرياته وأوهامه الباطلة «هذا الجنس لا يمكن أن يخرج بشيء إلا بالصلاة والصوم» (مر٩: ٢٩). فحينما يدخل الإنسان في الصوم يخرج الشيطان من الجسد.

والمسيح بصفته إبن الله لم يكن في حاجة للصوم، ولم يكن في حاجة إلى مواجهة مكشوفة مع الشيطان، تماماً كما أنه لم يكن في حاجة إلى العماد أو الإمتلاء من الروح القدس. ولكن المسيح أكمل كل شيء من أجلنا، لكي تكون حياته حياتنا وأعماله تصبح أعمالنا.

فإن كنا قد عرفنا أن العماد أكمله المسيح «**لكي يُظهر لإسرائيل**» (يو١: ٣١) حسب تقرير يوحنا، فالإمتلاء من الروح القدس بالتالي كان «**لكي يُجرَّب من إبليس**» (مت٤: ١)، أي ليظهر على حقيقته تجاه عالم أرواح الظلمة، وليدخل جهاراً في معركة سافرة مع الشيطان لحساب جنسنا.

أما الصوم فكان لرفع الجسد إلى مستوى المعركة مع أرواح الشر، ذلك الجنس الشرير المتسلط على الجزء الأضعف فينا — أي الجسد!

ويلاحظ القارىء أن **العماد، والإمتلاء من الروح القدس، والصوم**، هم ثلاثة أفعال أساسية مسلسلة في حياة المسيح لا يمكن فصلهم عن بعضهم البعض، وقد انتهوا بنصرة كاملة على الشيطان — بصفته رئيس هذا العالم، تمهيداً للإنهاء عليه بالصليب.

لذلك أصبح من أهم ما يمكن لحياتنا أن نأخذ بهذه الأفعال الثلاثة كما هي ثم نتحسس قوة كل منها في أعماقنا ونستمد من المسيح استعلان عملها فينا كما كانت فيه، حتى تنطبق علينا حياة المسيح ذاتها، لأن القصد النهائي من العماد والإمتلاء من الروح القدس والصوم هو أن يصير المسيح نفسه فينا «أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيّ» (غل٢: ٢٠)!

في العماد تنقطع صلتنا بآدميتنا الأولى لنأخذ بنوتنا لله في المسيح.
في الامتلاء بالروح القدس تنقطع صلتنا بالشيطان وحياة الخطيئة لنأخذ روح الحياة في المسيح.
في الصوم تنقطع الصلة بين الغريزة والشيطان ليأخذ الجسد نصرة السلوك بالروح في المسيح.

وهكذا يستحيل أن نفصل بين هذه الأفعال الثلاثة: **فالعماد** يعطي ملئاً روحياً، **والملء الروحي** يعطي **بالصوم** نصرة للجسد للسلوك بالروح، و بالثلاثة معاً يحيا الإنسان في المسيح، ويحيا المسيح في الإنسان!

على أن البعد الزمني للأفعال الثلاثة لا يضعف من إلتحامها معاً أو يفصل بين قوة الواحد عن الآخر. **فالعماد** في الطفولة، **والملء** عند نضوج الوعي العقلي والإنفتاح النفسي، **والصوم** الذي يأتي كختام هذه الأفعال الثلاثة، لا تُرى — بالرؤيا الروحية — أنها منفصلة، فهي وإن أتت على مستوى الزمن متباعدة — بحكم الضرورة الإنسانية — إلا أنها من حيث طبيعتها الروحية فعل واحد؛ لأنها نابعة لنا من المسيح، والمسيح هو «**فعل واحد**» «**كلمة واحد**»، يحل فينا بنفسه في كل فعل من الأفعال

الثلاثة ليعطينا بالنهاية مِلأه وشكله وحياته، لنحياه هو كفعل واحد وكلمة واحد، ولكي لا نعود نحيا أنفسنا في صورتها الممزقة المنقسمة.

وكل ما أريد أن أوضحه للقارىء، هو أن الصوم «**فعل إلهي**» استلمناه من المسيح كفعل حياة جاء مكملاً لفعل العماد والملء. وكان همُّ الكنيسة الأعظم منذ البدء أن تدخل «**أفعال حياة المسيح**» في جسمها لتكون أفعال حياة لكل أعضائها لتحيا بها. فهي إن كانت تقتدي بالمسيح في منهجها الحياتى، فذلك لأنها أُعطيت من الله نعمة وسلطاناً أن تأخذ المسيح نفسه كحياة لها. فالكنيسة المتحدة بالمسيح هي صورة حية وفعَّالة لحياة المسيح، وقد صوَّرها الإنجيل أنها «**عروس المسيح**» المتحدة بعريسها، حيث بينما يعلن الإنجيل بهذا الوصف أن الكنيسة **صارت واحدة مع المسيح**، فالإنجيل لا يزال يلحُّ على أن المسيح سيظل عريساً قائماً بذاته ـ مهما أعطى ذاته. فلا المسيح يصير كنيسة، ولا الكنيسة تصير مسيحاً، وهذا يؤكد لنا أننا ككنيسة وكأعضاء في جسد المسيح سنظل محتاجين إلى أن نجاهد لنأخذ المسيح، لنكون أكثر شبهاً للمسيح، لنكون **عروساً «بلا دنس» (أف ٥: ٢٧)**، **«عذراء عفيفة» (٢ كو١١: ٢)** مخطوبة، وفي حالة خطوبة دائمة بشبه العذراء التي حملت وولدت الكلمة وهي عذراء مخطوبة؛ حيث العذراوية هنا هي حفظ الإنسان نفسه بلا دنس في هذا العالم، وحيث الدنس هو الإشتباك غير المقدس بين الشيطان و«شهوة الجسد» و«شهوة العيون» و«تعظم المعيشة» (١يو٢: ١٦)، هذه الرُبُط الثلاثة التي فكها المسيح وحطمها أثناء الصوم المقدس على جبل التجربة، وسلَّمها لنا كصك ميراث نعيشه ونحققه بالصوم، في ملء الروح القدس وسر المعمودية.

الصوم بهذا المعنى قامة من قامات المسيح الأساسية التي لا يمكن أن يتجاوزها إنسان ويقول إني أعيش في ملء قامة المسيح (أف ٤: ١٣)، أو أن المسيح يعيش فيَّ في ملء قامته، فإن كانت المعمودية قامة والصليب قامة، فالصوم هو القامة التي عاشها المسيح كمرحلة أساسية وهامة جداً، بين المعمودية والصليب. فالملء بالروح القدس الذي أكمله المسيح بالمعمودية رفع الجسد إلى مستوى الصوم الفائق، أي إماتة الجسد

بالنسك الشديد، والصوم كحرمان كلي من الأكل والشرب والإنفراد الكلي والصلاة، لقد رفع الجسد إلى مستوى الصليب!!

يستحيل أن يحمل الإنسان صليبه حسناً ويجوز تجربة الشيطان ومحنة العالم وظلم الأشرار، دون أن يستوفي **قامة الصوم** على جبل التجربة. والإمتلاء بالروح القدس إن لم يؤهِّل الإنسان للصوم، فخطر السقوط تحت تجربة الصليب قائم أمامه لا محالة.

هنا الإقتداء بأعمال المسيح، التي جعلتها الكنيسة منهج حياة لنا، يظهر بوضوح فائق أنه ضرورة حتمية يلزم أن نأخذه لأنفسنا ونكتشف فيه خلاصنا وقوتنا وأماننا ونصرتنا.

فالمسيح لم يعتمد لأجل نفسه ولا صُلب لأجل نفسه، وبالتالي لم يَصُم أربعين يوماً من أجل نفسه!! لذلك فأعمال المسيح وهي قوة قادرة مقتدرة بحد ذاتها، صارت مصادر خلاصنا وحياتنا، ولكن لا تؤول قوتها إلينا إلا إذا عشناها ومارسناها. فالذي يعتمد يلبس المسيح، والذي يمتلىء بالروح القدس يحيا بحياة المسيح، والذي يصوم ينال نصرة المسيح على رئيس هذا العالم.

لذلك نسمع المسيح بكل وضوح يعلن مدى تأثير أعماله وحياته علينا بقوله: «إن حرركم الإبن فبالحقيقة تكونون أحراراً» (يو٨: ٣٦). وكيف يحررنا الإبن من العالم والشيطان وذواتنا إلا بأن يعيش فينا ويعطينا حياته وأعماله ونصرته. لذلك يؤكد كثيراً «**اثبتوا فيَّ وأنا فيكم**» (يو١٥: ٣). هذا هو الفعل أو العمل المتبادل. نحن نعمل أعماله ونحيا على مثاله، فيعطينا هو بالتالي قوة أعماله وقوة حياته ومثاله!!

ويعود مرة أخرى وينبه: «**تعلموا مني**» (مت١١: ٢٩). وهنا يكشف أنه وضع نفسه كنموذج حياة وعمل «**كسابق من أجلنا**» (عب٦: ٢٠)، «**كباكورة**» (١كو١٥: ٢٣)، حتى نتبعه في كل شيء بكل تدقيق «**لنصير مثله**» (١يو٣: ٢)، لأنه صار مثلنا لكي نصير مثله!!

والمسيح بعد أن أكمل طريق خلاصنا بهذه الأعمال كلها يقف الآن بوجهه الشاحب وجروحه في يديه ورجليه وجنبه، يسأل: هل تؤمنون بي؟ هل تؤمنون بالأعمال التي عملتها؟ هل تقبلونني كعريس حقاً؟... وهو لا ينتظر منا أن نقول: «نعم» فقط كعروس متكاسلة، لأنه يدعونا للشركة الكاملة معه في الآلام والمجد معاً. فعلينا أن نثبّت شركة إيماننا باستجابة لشركة أعماله. فالأعمال وحدها هي التي تشهد لصدق إيماننا، ولكنه كعريس حقيقي لم يتركنا لنخترع لأنفسنا أعمالاً، بل وضع لنا بنفسه منهج أعمالنا وحياتنا: «أنا هو الطريق» (يو١٤ : ٦)، «**من يتبعني لا يمشي في** الظلمة» (يو٨ : ١٢). التبعية هنا ليست نظرية فكر بقدرما هي اقتفاء أثر، واقتداء عمل، وشركة حب وألم.

وليلاحظ القارىء أن كل وصايا المسيح التي أوصى بها من جهة الأعمال، سواء الفقر الإختياري أو النسك أو جحد الأهل أو التجرد أو حمل الصليب، تدور كلها حول شخص المسيح وتنتهي إليه. «**من أجلي**» (مت١٦ : ٢٥)، «**تعال اتبعني**» (مت١٩ : ٢١)، «**من أجل إسمي**» (مت١٩ : ٢٩)، «**يكون لي تلميذاً**» (لو١٤ : ٢٦)، «**يسير ورائي**» (مت١٦ : ٢٤)، «**تسهروا معي**» (مت٢٦ : ٤٠).

هنا المسيح يشاركنا، أو بالحري نحن نشاركه كل عمل من أعماله التي أحبها، على أساس من حبنا و بذلنا ونسكنا، من هنا أصبحت أعمالنا كلها مستمدة من أعماله: نُسكنا من نُسكه، وصومنا من صومه، وحبنا من حبه، و بالنهاية الشركة هنا شركة واقعية ننميها كل يوم بمزيد من الإقتداء في الفكر والعمل السلوكي على آثار خطواته، وتعميق إحساسنا به في حياتنا حينما نجعله عاملاً فينا ومريداً لنا، ونحن في استجابة حرة تلقائية سريعة كعروس لعريس.

الأعمال هنا كلها التي نعملها في إسم المسيح ولأجل إسمه واقتداءً به، من صوم وسهر وصبر وتحمل آلام واضطهاد وخدمة ومحبة باذلة وصليب، هي ترجمة إرادية لشهوة الإقتداء ثم الإتحاد بشخص المسيح «**اتبعني**» (مت٩ : ٩)، وهي تعبير عن شركة بالروح و بالقلب والنية.

هنا قد تكون هذه الأعمال واسطة للتعبير عن إعطاء النفس كلها للمسيح عطاءً علنياً في حب مستسلم وتبعية مطلقة، كما أعطى يوحنا و يعقوب أخوه و بقية التلاميذ حياتهم وسلموا أنفسهم للمسيح بمجرد أن رأوه وسمعوه، فتركوا بيوتهم وأعمالهم وصاروا من التابعين «**ها قد تركنا كل شيء وتبعناك**» (مت١٩ : ٢٧)، فصاروا بالفعل شركاء في كل أعمال المسيح ومسيرته وآلامه «أنتم الذين ثبتُّم معي في تجاربي» (لو٢٢ : ٢٨).

ولكن لا يمتنع أن تكون هذه الأعمال كلها من صوم وسهر وصلاة وخدمة و بذل تعبيراً عن محبة مخفية، لكن مُضافة على أعمال الحياة اليومية وسعي الجسد للقمة العيش وتربية الأولاد، كما سمعنا عن كثيرين من الذين تبعوا المسيح دون العلنية الرسمية كنيقوديموس و يوسف الرامي ومرثا ومريم ولعازر وغيرهم، الذين بلغوا إلى مستوى عالٍ جداً من المحبة للمسيح لا تقلُّ عن الرسل أنفسهم. غير أن الذين تركوا بالفعل كلّ شيء — أي بيوتهم و وظائفهم — وتبعوا المسيح، هم الذين جعلوا من الأعمال الروحية تعبيراً متسامياً جداً عن تقييم عميق لشخص المسيح «لقد تركنا كل شيء وتبعناك»، حيث كلمة «تبعناك» هنا تفيد الإنتقال من العمل الدنيوي إلى العمل الروحي، باعتبار أن المسيح كفؤ أن يملأ الحياة و يغطي كل أعوازها، و يصير هو عملنا الوحيد ورجاءنا الوحيد واهتمامنا الوحيد.

وهذه هي بعينها العقيدة الأرثوذكسية التي تسلمتها الكنيسة من الرسل من جهة الغيرة والحرارة والجهاد في **الأعمال** باعتبار أنها المعيار أو المقياس الأساسي الذي به يُعبر كل إنسان عن مستوى تقييمه للمسيح. فمدى الإهتمام والإخلاص في العمل الروحي في حياة كل إنسان هو الذي يعلن عن النور الداخلي الصادر من الإلتصاق بالمسيح، و بالتالي يشهد للآب «**فليضيء نوركم** هكذا قدام الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السموات» (مت٥ : ١٦).

لقد ورث الرسل كل حياة المسيح كشركاء أعمال وأفعال كانوا فيها شهود عيان، ورثوا الصوم الطويل كما رأوه وسمعوه «هذا الجنس لا يمكن أن يخرج إلا بالصلاة

والصوم» (مر٩: ٢٩)، وسهر الليالي بطولها في الصلاة «اسهروا وصلوا» (مت٢٦: ٤١)، ورثوا الجهاد في الصلاة بالسجود المتواتر والعرق المتصبب كقطرات الدم «وإذ كان في جهاد كان يصلي بأشد لجاجة، وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض... فقال لهم (التلاميذ): لماذا أنتم نيام قوموا وصلوا» (لو٢٢: ٤٤—٤٦).
ورثوا الإحتمال والصبر على إهانة الرؤساء وخيانة الزملاء «إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم» (يو١٥: ٢٠)، ورثوا الخدمة في الأسواق و بين المرضى والخطاة والمساكين، ورثوا الألم والمعاناة والصليب كأغلى وأحلى ما ورثوه عن المسيح «أما الكأس التي أشربها أنا فتشربانها» (مر١٠: ٣٩)، «فأجاب بولس ماذا تفعلون؟ تبكون وتكسرون قلبي، لأني مستعد ليس أن أُربط فقط بل أن أموت أيضاً في أورشليم لأجل إسم الرب يسوع» (أع٢١: ١٣).

ورثوا كل هذه الأعمال غير منفصلة عن المسيح، لقد حل المسيح بالإيمان في قلوبهم لما نالوا الروح القدس، فعملوا كل أعمال المسيح حسب كل ما وعد به حتى المعجزات وحتى الموت!!

وقد ورثت الكنيسة هذه الخبرة الرسولية الحية، أي ورثت «**المسيح العامل في الرسل**». لذلك فعندما تسمع أيها القارىء بأهمية بل بحتمية الأعمال في الكنيسة الأرثوذكسية، فهذا معناه أن الكنيسة تركز على شخصية المسيح نفسه باعتباره العامل فينا كما في الرسل نفس الأعمال التي عملها لنا من أجل خلاصنا. لأن الكنيسة تؤمن تماماً بما يعنيه بولس الرسول في قوله: «لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا» (في٢: ١٣)، كما تثق أيضاً أن هذا يؤدي إلى قول بولس أيضاً: «فاعملوا الكل لمجد الله» (١كو١٠: ٣١)، باعتبار أن العمل ينبغي أن يكون معمولاً بالمسيح وفي حضرته لأن عمل المسيح هو الوحيد الذي يؤدي حقاً إلى مجد الله، لأن «**المسيح هو رب لمجد الله الآب**» (في٢: ١١).

وبهذا يتضح أكثر أن إيمان الكنيسة الأرثوذكسية بالأعمال هو في حقيقته إيمان بحياة كاملة في المسيح، لها كل عمل المسيح وإرادته بل وكل إرساليته وتعاطفه مع كل

البشرية، وليس مجرد عمل محدود معمول بالإرادة البشرية لإراحة الذات.

فأهمية الأعمال في ذهن الكنيسة تقوم على أساس أن كل الأعمال يلزم أن تنبع من إرادة المسيح وتكمل بقوته «أستطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني» (في٤: ١٣)، وحينئذ ينتهي حتماً بمجد الله الآب، أي تعلنه وتشهد له «ليروا أعمالكم الصالحة ويمجدوا أباكم الذي في السموات» (مت٥: ١٦).

ولذلك لا يمكن فصل مفهوم «الإيمان والأعمال» في الكنيسة الأرثوذكسية عن شخص المسيح الحي بصفته مصدر الإيمان ومصدر الأعمال في حياة الإنسان، باعتبار أن الإيمان والأعمال يختصان بتمجيد الله الآب بالنهاية، الأمر الذي هو في الحقيقة من اختصاص المسيح وحده وصفة جوهرية له «المسيح رب لمجد الله الآب» (في٢: ١١).

على أن القانون الذي يضبط صحة الأعمال **لتكون بالمسيح معمولة ولتكون لمجد الله الآب**، هو الإقتداء الكامل بالمسيح في كل قول وعمل وسلوك، حيث يستلهم الإنسان روح المسيح في كل شيء بالصلاة لتتصفى الأعمال من شوائب الإرادة والفكر البشري وتكون خالية من المجاملة الكاذبة والرياء والتزييف والممالأة ومحبة الذات التي تجعل الأعمال ميتة بدون قوة ولا ثمر.

(مارس ١٩٧٧)



على جبـــل التجربـــــة

ـ ١ ـ

«أما يسوع فرجع من الأردن ممتلئاً من الروح القدس» (لو٤: ١).

كان حلول الروح القدس على الرب في العماد، هو المسحة الفائقة المعنى والوصف، والقوة الخاصة التي انسكبت من الأعالي لتهيئة الجسد لعمل الفداء الذي بدأ مباشرة بعد العماد، حينما اقتاده الروح إلى البراري لمواجهة رئيس هذا العالم وسيد الخطيئة.

وبطرس الرسول يشير إلى هذه المسحة والقوة العلنية كشهادة، ويربطها بالخدمة ربطاً مباشراً: «يسوع الذي من الناصرة كيف **مسحه الله بالروح القدس والقوة**، الذي جال يصنع خيراً ويشفي جميع المتسلط عليهم إبليس لأن الله كان معه...» (أع١٠: ٣٨).

و«المسحة» اصطلاح لاهوتي يفيد التخصص الكامل لخدمة الله والمقدسات، وكانت لا تجرى إلا على رؤساء الكهنة والملوك والأنبياء وأوعية القدس، وكانت تجرى بدهن الجسد بزيت يوضع في قرن يسمى قرن المسحة ويشار إليه بقرن الخلاص؛ فكانت المسحة كلها بكل أصنافها وطقوسها ترمز إلى المسيح «قرن الخلاص الحقيقي»: «وامتلأ زكريا أبوه من الروح القدس وتنبأ قائلاً: مبارك الرب إله إسرائيل لأنه افتقد **وصنع فداءً لشعبه وأقام لنا قرن خلاص في بيت داود فتاه»** (لو١: ٦٧ـ٦٩).

أما المسيح فقَبِل المسحة من السماء رأساً، وقد جمع في شخصه كل معنى المسحة وقوتها كرئيس الكهنة، والملك، والنبي الحامل لروح النبوة: «**فإن شهادة يسوع هي**

روح النبوة» (رؤ١٩: ١٠).

ويعلق المزمور على هذه المسحة فوق العادة قائلاً: «**قد مسحك الله** بزيت البهجة، أكثر من رفقائك» (مز٤٥: ٧). وهنا نجد داود النبي يقرن بين **المسحة والبهجة** كما تمت تماماً على الأردن إذ أكملها الله لإبنه وهو في غاية السرور: «هذا هو ابني الحبيب الذي به **سررت**» (مت٣: ١٧).

وبمسح المسيح على الأردن بدأت في الحال «أزمنة البر الأبدي» التي سبق وأعلنها الله لدانيال في الرؤيا: «ليُؤتَى بالبر الأبدي (ولفتح) ولختم الرؤيا والنبوة **ولمسح قدوس القدوسين**» (دا٩: ٢٤).

أما العلامة التي سترافق مجيء أزمنة البر الأبدي ومسح قدوس القدوسين، فأشار إشعياء النبي إليها بحالة «حلول الروح»، معبِّراً تعبيراً جيلاً عن أزمنة البر باصطلاح آخر، «سنة الرب المقبولة»: «**روح السيد الرب عليَّ**»: «لأن الرب مسحني لأبشر المساكين، أرسلني لأعصب منكسري القلب، لأنادي للمسبيين بالعتق وللمأسورين بالإطلاق، **لأنادي بسنة مقبولة للرب**» (إش٦١: ١، ٢).

وقد انفتح هذا الختم الرؤيوي العجيب، وانكشفت النبوة، وبدأ اليوم الأبدي لسنة البر التي لا نهاية لها، واستُعلن قدوس القدوسين بغير ما صعوبة؛ حينما وقف المسيح في المجمع وطُلب إليه أن يقرأ، ففتح سفر إشعياء النبي فوجد، بالتدبير، نفس الموضع حيث النبوة والختم، وأخذ يقرأ: «روح الرب عليَّ...»، وطوى السفر بعد أن فك ختومه قائلاً: «اليوم قد تم هذا المكتوب في مسامعكم»! (لو٤: ٢١) وتم القول بالفعل: «إن شهادة يسوع هي روح النبوة» (رؤ١٩: ١٠).

ولكن كيف يمتلىء المسيح من الروح القدس وهو الإله؟

إن الإجابة على هذا السؤال جد خطيرة، وتعتبر الأساس الذي ينبغي أن نبني عليه فكرنا الإيماني بشخص المسيح وبرسالة الفداء. فالمسيح لم يتقبل الروح القدس على

الأردن لذاته هو، لأنه واحد مع الروح القدس بالجوهر بغير افتراق لأنه ابن الله. ولكن كما قيل في تجسده أولاً أنه مولود من الروح القدس ومن العذراء، يقال تماماً أن الروح القدس حل عليه ثانياً بعد العماد، فالأمر يختص بتجسده أولاً وثانياً، وتجسده يختص بخلاصنا أولاً وأخيراً!... ولكي نوضح المعنى أكثر نسمع للقديس ساو يرس الأنطاكي:

[إن الروح القدس الذي هو لي هو الذي حل عليَّ!!، فلماذا أنا الآن سُميت مسيحاً؟ أليس لأني صرت إنساناً؟؟... **لقد حل الروح القدس على المسيح كالتدبير لأجل إنسانيته**، وإلا فالروح القدس هو له طبيعياً باللاهوت فالذي حل عليه ليس هو غريباً منه بل هو واحد معه في الجوهر، ولم يزل معه قبل الدهور].

(القديس ساو يرس الأنطاكي في رسالته إلى البابا ثيئوذوسيوس).

ولكي نزيد المعنى اللاهوتي وضوحاً نورد قولاً آخر للقديس كيرلس الكبير:

[نفاق عظيم أن يعتقد أحد أصلاً أن كلمة الله احتاج بجوهره إلى معونة الروح القدس، هذا الفعل له برهان ظاهر: إنه إنما حل الروح القدس عليه ناسوتياً لما بدأ **يُظهر لنا تدبير الجسد**(١)... لأنه لم ينل الروح القدس في ذاته هو، لأن الروح القدس هو فيه كما في الآب أيضاً، **بل إنما قَبِل ذلك من أجلنا** نحن البشر، لأن المسيح كان معدوداً من الذين على الأرض. فإن كان قد نال الروح القدس بناسوته، فقد رأيناه أيضاً يعطينا الروح القدس بلاهوته... فإن كان هذا الواحد ربنا يسوع المسيح الذي يقبل الروح القدس هو أيضاً الذي يعطيه، فالفعل ظاهر: أن هذا الواحد يسوع المسيح يقبل الروح القدس كتدبير تجسده، وهو أيضاً يعطيه لأنه هو الله بالطبيعة. وإن كان يحل عليه كانسانيته،

---

(١) يستخدم الآباء اللاهوتيون عموماً والإسكندريون خصوصاً لفظة «كالتدبير» أو «بحسب التدبير»، اختصاراً لتفيد معنى سياسة الله وحكمته في كل أعمال الثالوث والتجسد الإلهي بنوع مخصوص لتكميل الفداء والخلاص، باعتبار أن جميع ما تم فيها هو من أجلنا، وليس من أجل إبن الله في شخصه الإلهي.
والكلمة «كالتدبير» في تحليل معناها اليوناني بحسب استخدامها تفيد معنى **البناء الرعائي**. والمرجو أن تدخل هذه الكلمة في تعبيراتنا اللاهوتية مرة أخرى لأنها تراث لاهوتي في غاية الدقة والعمق.

فليس يحل عليه في خاصيته هو، بل لنا (أي) على الطبيعة البشرية(١)، وهذا الروح من عنده وهو فيه ومعه] De Recta Fide ad Reg.

و ينبغي أن نأخذ في الإعتبار جداً أن الروح القدس يدخل في عملية التجسد وبالتالي في عملية الفداء والخلاص كعامل أساسي من البداية حتى النهاية، فقد رافق الميلاد، والعماد، والتجربة، والمعجزة، والشهادة للمسيح: «فهو يشهد لي» (يو١٥: ٢٦)، والإعتراف والإيمان: «ليس أحد يقدر أن يقول يسوع ربٌّ إلا بالروح القدس» (١كو١٢: ٣)، والتعريف بأسرار المسيح «يأخذ مما لي ويخبركم» (يو١٦: ١٤).

— ٢ —

«وكان يُقتاد بالروح في البرية أربعين يوماً يجرَّب من إبليس» (لو٤: ١ و٢).

واضح أن المسيح لم يسعَ للتجربة بنفسه. أليس هو القائل في الصلاة: «لا تُدخلنا في تجربة»؟ (مت٦: ١٣)، ولكن لما أتته لم يكن يتهرب منها بل لاقاها كمستعد، لأنه من أجلها قد جاء، لذلك كان يتعجلها إذا أتت، «ما أنت تعمله فأعمله بأكثر سرعة» (يو١٣: ٢٧)!

و يعلق القديس أثناسيوس الرسولي على هذا المعنى:

[لم يكن لائقاً بكلمة الله ــ وهو الحياة ــ أن يوقع الموت على جسده بنفسه كذلك لم يكن لائقاً أن يتهرب من الموت الذي يأتي به الآخرون، على أن ذلك لا يعني ضعف «الكلمة»، بل بالعكس أكد أنه هو المخلِّص وهو الحياة، لأنه **انتظر الموت حتى يأتيه لكي يبيده، ثم عجَّل بإتمامه لأجل خلاص الجميع**].

(القديس أثناسيوس الرسولي: تجسد الكلمة ٢٢: ١).

---

(١) أنظر التعليق السابق.

ولماذا كان يقتاده الروح ؟

واضح أن الروح القدس هنا يدخل كعامل أساسي في الإعلان عن بر المسيح ، والشهادة والإعلان لربوبية المسيح ما ينبغي أن تبدأ من المسيح ، لقد تولاها الروح لأنها من أخص خصائصه ، فالباراكليت له دور فعال في رسالة الخلاص تظهر سراً من حين لآخر، ولا يلتفت إليها إلا المرهفون لعمل هذا الروح الوديع الهادىء الناكر لنفسه دائماً !...

فإن كان يوحنا المعمدان تقدم المسيح **بروح إيليا** كصوت يصرخ في برية وكمصباح ليلي يضيء المعارج و يظهر المعوجات ، فقد انسحب هذا الصوت وتوقف نوره بمجرد انسكاب **روح الله** على المسيح بدفق قوي ، وصار يتقدمه إنما بصوت لا يُسمع إلا في القلوب سراً يشفي سحقها و يعصب كسرها و يزيل يأسها ، و بنور يضيء مداخل العيون لا مخارجها ، لينيرها بنور الأبدية الذي لا يكشفه العالم !!

« روح السيد الرب عليَّ... لأعزي كل النائحين لأجعل لنائحي صهيون (ترنماً). لأعطيهم جمالاً عوضاً عن الرماد ، ودهن فرح عوضاً عن النوح ، ورداء تسبيح عوضاً عن الروح اليائسة »... (إش ٦١ : ١ــ ٣).

ولماذا أراد الروح أن يجرب المسيح من إبليس ؟:

لم يفُت على إشعياء النبي هذه اللفتة الدقيقة ، اسمعه يقول : « **روح الرب عليَّ... لأنادي بسنة مقبولة للرب وبيوم انتقام لإلهنا** » (إش ٦١ : ٢) !!

وكأنما يريد إشعياء النبي أن يقول أن سنة الرب تبدأ بالضرورة بيوم إقصاء العدو، والبر لا ينسكب إلا إذا انحجز الإثم ! وفك المأسورين يسبقه أسر الظالم !...

أو لماذا كان نوح النائحين و يأس اليائسين في صهيون كلها وكل الأرض ؟
أو لماذا كانت ذلة المساكين وكسر القلوب وسبي المسبيين وأسر المأسورين ؟ أليس

هو عدو جنسنا الذي ملك علينا بالموت ، وربطنا بالخطيئة ، وألقانا في أسر الشهوة ، وختم علينا بيأس من الخلاص ، وأهان العلي في صورته التي هي جبلتنا ؟...

لذلك دبرُ الروح أن يكون يوم النقمة أول يوم في مشورة الفداء... ولقد بدأ به المسيح في برية التجربة وانتهى منه على الجلجثة !!

ولكن كيف يُجرَّب المسيح من الشيطان وهو الإله ؟:

سؤال ينقلنا مباشرة من التأمل في التجربة إلى التأمل في المسيح أولاً .
وإن مجرد ذكر كلمة « تجربة » يوصل فكرنا بمعنى الخطيئة ، فالكتاب جعل التجربة متعلقة بالخطيئة على وجه العموم ، سواء عن طريق مباشر فيرادفها العقاب ، أو عن طريق غير مباشر فيرادفها التزكية .

ولكن لا عن هذا الطريق ولا عن ذاك يمكن أن ننسب التجربة للمسيح أصلاً !! فالمعروف قطعاً أن الله غير مجرَّب بالشرور (يع ١ : ١٣) ، (حيث كلمة مجرَّب هنا مبني للمجهول بتشديد الراء وفتحها) بمعنى أنه يستحيل أن يدخل الله التجربة من قبل الشرير !!

فماذا تكون تجربة المسيح ؟
هنا نعود مرة أخرى إلى جسد المسيح نتأمله ، فالمعروف قطعاً وبحسب الإيمان أن المسيح حُبل به ووُلد بلا خطيئة (الخطيئة الأصلية) **فهل كان بعد ذلك قابلاً للخطيئة ؟** هذا أمر محال بسبب اتحاد الجسد الذي بلا خطيئة بالكلمة اتحاداً أقنومياً (٢) :

(٢) *Hypostatic union* الإتحاد أقنومياً ، أو كالأقنوم ، أو بحسب الأقنوم ، يعني إتحاد « الكلمة » الذي هو إبن الله الوحيد بالجسد الذي أخذه من العذراء اتحاداً حقيقياً كاملاً بالأقنوم الإلهي منذ أول لحظة للتجسد الإلهي ، فصار الجسد جسداً خاصاً للأقنوم . على أن الإتحاد لم يُنقص من حدود الأقنوم الإلهي وصفاته الطبيعية شيئاً بالمرة . وهذا الإصطلاح هام جداً من جهة العقيدة الأرثوذكسية ، وقد بدأ به القديس أثناسيوس وقنَّنه القديس كيرلس ، وحافظ عليه كافة الآباء من بعدهما ، وذلك لتوضيح وحدة طبيعة الأقنوم مع الجسد باعتبار أن الجسد صار جسداً إلهياً أو جسد إبن الله !! =

[ولهذا نقول أيضاً أن كل ما للجسد هو للكلمة من غير خطيئة ، كتدبيره].
(القديس كيرلس الكبير: رسالة ثانية إلى Succensus).

[وصار الكلمة واحداً مع النفس الناطقة والجسد كالأقنوم... وصار إنساناً].
(القديس كيرلس الكبير: رسالة إلى نسطور).

[الذي لا يعترف بكلمة الله الآب أنه **صار واحداً مع الجسد كالأقنوم** وأن المسيح واحد فقط مع جسده وهو إله وهو إنسان **معاً** (أي بآن واحد) فليكن محروماً].

(القديس كيرلس الكبير: الرسالة الثالثة لنسطور، الحرم الثاني).

[الناس كلهم لهم جسد ليعيشوا به و يقوموا به ، أما كلمة الله فتأنس لكي يقدس الجسد].

(القديس أثناسيوس الرسولي: الحديث الثاني ضد أريوس).

وفي رسالة للقديس كيرلس الكبير إلى الملك ثيئودوسيوس ، يبين **فاعلية الجوهر الإلهي في الناسوت فعلاً متغلغلاً يُبرز معنى الوحدة الناتجة من الاتحاد وقيمتها :**
[فإن كان في الناسوت فهو أيضاً قاهر للخطيئة لأنه بطبيعته وجوهره غير مستحيل بالكلية وهو غالب في كل شيء وكل الخطايا بعيدة منه !!]
(القديس كيرلس الكبير De Recta Fide).

= ومن هذا الإصطلاح انبثق قانون عقيدتنا المختصر المشهور الذي تمسك به كيرلس الكبير ومن بعده كافة الآباء « **طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد** » . وقد حاول ويحاول بعض اللاهوتيين حديثاً تعو يج هذا الإصطلاح لجعله يُنطق هكذا « طبيعة واحدة متجسدة لله الكلمة » وهذا خطأ ولا يطابق نص الترجمة كما جاءت في كتابات كيرلس الكبير بوضوح ما لا يقل عن عشر ين مرة ، فالطبيعة لم تتجسد ولكن الكلمة أي الأقنوم هو الذي تجسد: [إذا رفضنا الإتحاد الأقنومي كأنه أمر مستحيل أو غير لائق فإننا نقع حتماً في خطأ إيجاد إبنين].

(القديس كيرلس الكبير: الرسالة الرابعة).

فكيف نعتبر إذن أن جسد المسيح ، الفاقد نهائياً لعنصر الخطيئة ، جسد طبيعي مثلنا تماماً ؟

الرد على هذا السؤال واضح ، لأن الخطيئة ليست عنصراً طبيعياً في جسد الإنسان ، فهي دخيلة على جبلتنا ، ودخولها كان إرادياً من جهتنا ، لذلك فإن تجسد المسيح من الروح القدس ومن العذراء القديسة مريم أظهر لنا جسداً كطبيعتنا البشرية تماماً ، إنما خالياً من خطيئة آدم الأصلية الإرادية .
[هذا الجسد وإن كان قد اتخذه من مريم فهو مقدس بالحقيقة].
(القديس أثناسيوس To Epictat.).

ولكن بالرغم من ذلك فقد بقي الجسد الذي أخذه المسيح من العذراء واتحد به كالأقنوم محتفظاً بكل خواص ضعفه وإمكانياته لقبول الآلام (التي بلا لوم) والموت أيضاً ما خلا الخطيئة وحدها :
[لأنه لما صار إنساناً لم يبطل أن يكون إلهاً ، ولا لكونه هو الله استحى مما للإنسان].

(القديس أثناسيوس: في حديثه الثالث ضد آر يوس).

بل و يبين القديس أثناسيوس في موضع آخر أن جسد المسيح يُعتبر نموذجاً كاملاً للبشرية ، لذلك أبقى فيه كل ما للإنسان من ضعف ما خلا الخطيئة وحدها :
[لأن كل ما كُتب فيما يختص بناسوت مخلصنا ينبغي أن يُعتبر لكل جنس البشرية ، لأنه أخذ جسدنا وعرض في نفسه ضعف البشرية].
(القديس أثناسيوس: في الدفاع عن هروبه).

إذن فكيف يجرب المسيح من الشيطان وهو بلا خطيئة ؟

هنا نعود إلى نص الإنجيل لنلمح وضعاً سر ياً غاية في الإعتبار ، إذ بينما نجد أن جميع الناس ، بلا استثناء ، يأتيهم المجرب بشجاعة و يقتحم مجالهم وحياتهم بل وعزلتهم

وصلاتهم إذ يجد في طبيعتهم ما يشجعه على الجرأة عليهم بسبب ميلهم إلى الخطيئة؛ بل وحتى آدم وهو في الفردوس تجرأ العدو واقتحم فردوسه لأنه كان تحت الوصية وكانت له الحرية أن يطيعها وأن يتعداها لو أراد، فكان في طبيعة حرية آدم ما شجع العدو على اختبار هذه الحرية وهزِّها من كل جانب، إلا أنه في حالة المسيح هنا، نجد أن الوضع انقلب والإقتحام انعكس!! إذ نجد أن المسيح وهو منقاد بالروح يصعد الجبل ليجرب من إبليس!...

فالشيطان هنا نجده هارباً زائغاً، والمسيح يُقتاد بالروح ليقتحم مجاله ويطلبه ويسعى إليه في بريته القفرة في مكان راحته على الجبال حيث لا ماء!!

يالشجاعة الطبيعة الطاهرة، يالقوة القداسة وبأسها، مبارك مبارك آدم الثاني، خلِّص، خلِّص، أوصنا في الأعالي يابن داود!...

« فرأى أنه ليس إنسان وتحير من أنه ليس شفيع، فخلَّصت ذراعُه لنفسه(٣)، **وبره** هو عضده، فلبس **البر** كدرع، وخوذة الخلاص على رأسه، **ولبس ثياب الإنتقام كلباس**(٤)، واكتسى بالغيرة كرداء، حسب الأعمال هكذا يجازي مبغضيه سخطاً وأعداءه عقاباً!!».

(إش ٥٩: ١٦—١٨).

*

هنا الكلام عن تجربة المسيح من الشيطان بالرغم من مظهرها البسيط العادي الذي قلما استوقف نظرنا، يبدو لنا عميقاً غاية العمق وخطيراً لا في موضوعه فحسب، بل وفي طبيعته ونتائجه البعيدة الأثر...

وإن كانت التجربة تبدو موجهة للمسيح نجدها في واقعها الحقيقي محدقة بالشيطان، ولكن من ناحية أخرى، وهي الأهم، وهي التي تعنينا في هذا التأمل بوجه

(٣) المسيح يعبَّر عنه بذراع الله دائماً.

(٤) هنا تشير الرؤيا إلى جسد المسيح

خاص، نجد أن التجربة ذات فعل خلاصي يختص بنا في الصميم:

[إنه لما جربه الشيطان في البرية صبر له، لا لأنه كان محتاجاً للتجربة بل ليبطل قوة الشيطان].

(القديس ساويرس الأنطاكي: نقلاً عن القديس غريغوريوس النيسي).

لقد لبس كلمة الله جسد الإنسان كثوب انتقام، على حسب تصور إشعياء النبي العجيب، لكي يواجه به عدو جنسنا الذي أهان أجسادنا وأذلها، أو حسب تأمل بولس الرسول: «أرسل الله ابنه في شبه جسد الخطيئة ولأجل الخطيئة دان الخطيئة في الجسد!!» (رو ٨: ٣).

نعم كان ينبغي لإبن الله أنه بهذا الجسد الإنساني الضعيف المتألم الواقع تحت الموت، أن يغلب الشيطان ويقهره ويسوقه إلى الضعف والهاوية: «الهاوية من أسفل مهتزة لك لإستقبال قدومك... ويقولون لك **أأنت أيضاً قد ضعفت** نظيرنا وصرت مثلنا؟» (إش ١٤: ٩و١٠).

[إنه من الواجب أن الطبيعة المغلوبة بآدم تلبس بواسطة المسيح تاج الظفر وتهلك الموت!! وهذه هي العلة التي من أجلها صار مخلصنا إنساناً كقول بولس الرسول: «فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضاً كذلك فيهما» (عب ٢: ١٤)].

(البابا ثيئودوسيوس بطريرك الإسكندرية: رسالة إلى القديس ساويرس الأنطاكي).

— ٣ —

«ولم يأكل شيئاً في تلك الأيام»
(لو ٤: ٢).

عوض القوة والبأس والجبروت الإلهي الذي يسبق ويسير أمام الله في هيئة نار

و بروق ورعود ودخان وزلزلة، كما تعودنا في القديم، هنا نجد المسيح يسبق و يذلل بالصوم نفسه و يسير لملاقاة العدو في ضعف الجسد!! أليس هذا بعينه هو سر الإخلاء العجيب غير المدرَك ولا المفحوص، الذي بعد أن أعلنه المسيح بالتجسد بدأ يحققه بالضعف والتواضع؟!! وأليس من العجيب أن المسيح لا يواجه العدو بقوة لاهوته ظاهراً، وإنما كإنسان يصوم و يصلي؟

[إنه لما جربه الشيطان في البرية صبر له لا لأنه محتاج لتجربة بل ليبطل قوة الشيطان، ولم يقاتِل العدو بقوة لاهوته بل ظفر به بالجسد القابل للألم والموت لكي بهذا الجسد لا تدخل الخطيئة إلى العالم مرة أخرى، لأن بالخطيئة دخل الموت على الجميع وبهذا الجسد تمحى رجاسة الخطيئة، و يظفر هذا الجسد برئيس الخطية].

(القديس ساو يرس الأنطاكي عن القديس غر يغور يوس النيسي).

هنا نود لو ننبه عن أهمية العقيدة الأرثوذكسية بالطبيعة الواحدة للكلمة المتجسد!... والسؤال الذي يلقينا مباشرة في مواجهة العقيدة هو:

هل كان الجسد يعمل لهذه النصرة وهذا الخلاص منفرداً؟ ثم هل يمكن لو عمل الجسد منفرداً أن يدعى عمله خلاصاً؟؟

إن وحدة الجسد مع «الكلمة» ضرورة حتمية، لأن فعلها واحد!! فوحدة الجسد مع الكلمة (اللاهوت) هي منبع قوة العمل الواحد الذي عمله المسيح **بضعف الجسد!**

المسيح «دان الخطية» في جسد صائم ضعيف انكسر على الصليب «من ضعف»!!

ودينونة الخطيئة التي أكملها المسيح بضعف الجسد هذا، هي في الحقيقة صورة ناطقة لقوة اللاهوت المتحد بالجسد!

لذلك نجد أن الصليب، وهو فعل واحد أكمله الكلمة بالجسد، يسمى «**ضعفاً**» و يسمى «**قوة**» في نفس الوقت! فقيل عنه «صُلب من **ضعف**»، وقيل عنه أنه

«**قوة الله** للخلاص». وفي موضع آخر يُعبِّر الكتاب أيضاً عن عمل الصليب أنه «**ضعف الله**»!! (١ كو١: ٢٥) فهل يمكن بعد ذلك التعبير عن الوحدة بأكثر من ذلك؟

وماذا كانت النتيجة لإلتحام هذا الضعف بهذه القوة، إلا إبطال هذا الضعف وإلغاءه نهائياً من الجسد أي من الطبيعة البشرية إلى الأبد، الذي ظهر واضحاً في الجسد عند قيامة الرب به من الأموات فظهرت هذه الوحدة بالقيامة على أوضح ما يكون؟!

إذن فالإتحاد بين الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية، الذي نشأ عنه ميلاد الجسد، انتهى إلى وحدة كاملة ليس فيها أدنى ثنائية، فهما ليسا، بعد الإتحاد، طبيعتين بل طبيعة واحدة للكلمة المتجسد، تفعل فعلاً واحداً وتريد إرادة واحدة هي بعينها فعل الخلاص الواحد والفداء الواحد الذي يُنظَر له كضعف وقوة معاً، كموت وقيامة معاً!!

[نحن نقول إن طبيعتين قد اتحدتا، ولكن بعد الإتحاد لا يُفرَّقان إلى طبيعتين. لذلك نحن نؤمن بطبيعة واحدة للإبن لأنه واحد بالرغم من أنه تجسد وصار إنساناً].

(القديس كيرلس الكبير: رسالة ٤٠، To Acac.).

[و بينما الطبيعتان اللتان أتيتا إلى هذه الوحدة الحقيقية كانتا مختلفتين (إلهية و بشرية)، إلا أنه صار منهما المسيح الواحد، الإبن الواحد، ليس كأن اختلاف الطبيعتين قد زال بهذا الإتحاد وإنما اللاهوت والناسوت أكملا لنا رباً واحداً مسيحاً واحداً هو الإبن الوحيد بتآلفهما في وحدة فائقة تتجاوز الوصف والتفسير].

(القديس كيرلس الكبير: الرسالة الرابعة لنسطور).

[لأنه من أجل هذا الجسد **جعل إرادته الخاصة متحدة مع ضعف بشريته** حتى إذ يُبطل هذا الإنفعال (الضعف) يجعل الإنسان بالتالي لا يهاب الموت].

(القديس أثناسيوس: ضد أريوس، المقالة الثالثة: ٢٩).

وهنا يوضح القديس أثناسيوس، بعمق سهل و بقول قاطع كالسيف، أن للمسيح إرادة واحدة؛ حينما يسلمها للجسد تبدو ضعيفة، وضعفها إذ يُنشيء فداءً وخلاصاً يصير قوة ما بعدها قوة!!

فالجسد لم يكن يعمل بمفرده لأنه متحد بالكلمة، وكل أعماله لم تكن إلا تعبيراً عن إرادة الكلمة وفعله، فكل أعمال الجسد وآلامه ظهرت بالنهاية مخلِّصة ومحيية، معبِّرة عن فعل واحد وإرادة واحدة وطبيعة واحدة للكلمة المتجسد.

[وليس الناسوت وحده فعل تلك الأفعال كأنه مفترق عن اللاهوت، كلا بل اللاهوت قَبِل هذه الأعراض بإرادته لأنهما متحدان بوحدانية في كل شيء].
(القديس ساويرس الأنطاكي: رسالة إلى أنسطاسيوس الملك).

ثم أين هذا من قول البابا لاون (٥)، الذي أخذ به مجمع خلقيدونية، الذي يفرق بين أعمال الجسد وأعمال الكلمة (اللاهوت) تفريقاً يخلخل معنى الإتحاد و يقلقل وحدة الأقنوم؟ [كل طبيعة تكمل ما هو خاص بها بالاشتراك مع الأخرى، فالكلمة يُكمِّل ما هو خاص بالكلمة والجسد يعمل ما يخص الجسد: طومس لاون].

ثم يقولون عن مجمع خلقيدونية بعد ذلك أنهم إنما أخذوا في تفسيرهم هذا بمبادىء القديس كيرلس الكبير (؟) وأن قولهم هذا لا يخرج عن نصوص تعاليم القديس كيرلس اللاهوتية (؟) فإذا عدنا لكيرلس الكبير نسمع منه عكس ذلك تماماً:
[هكذا إذا قلنا عن عمانوئيل أنه من (٦) طبيعة اللاهوت وطبيعة الناسوت،

---

(٥) نحن لا نقصد بهذه المقارنة أن نستعيد مآسي التاريخ العقيدي وننقله إلى عصرنا، ولكننا نود أن نتجاوز الماضي بل ونتجاوز صلابة اللفظ والاصطلاح لنبلغ إلى جمال المسيح الواحد ونجمع كلنا في قلبه الواسع!

(٦) حينما يقال أن المسيح **من** طبيعتين خلاف ما يقال أنه بطبيعتين، لأن القول من طبيعتين هو قول صحيح و يفيد أن الطبيعة اللاهوتية والطبيعة البشرية أتيا إلى اتحاد فصار «الكلمة متجسداً». ولكن حينما يقال أن المسيح بطبيعتين فهذا يعنى أن الكلمة لا يزال كلمة والجسد لا يزال جسداً، فهما اثنان انجمعا معاً. وهذا القول لا تأخذ به الكنيسة اللاخلقيدونية، لأنه بعيد عن معنى النص الإنجيلي: «والكلمة صار جسداً» (يو ١: ١٤).

فإن الناسوت قد صار للكلمة فهو ابن واحد! والكتب المقدسة أنفاس روح الله تقول أنه: **تألم بالجسد** (٧)، فجيد لنا نحن أيضاً أن نقول مثلها، من أن نقول أنه تألم في طبيعة (٧) الناسوت، **لأن هذا كثير أن يقولوا أنه تألم بطبيعة الناسوت، فكأنهم يفرقوها من طبيعة الكلمة إذ يقولونها وحدها مفردة معتقدين باثنين ...**
ثم هم يقولون بعد ذلك أنها غير مفترقة و يظهرون كأنهم ينادون بالإيمان الصحيح (٨)].
(القديس كيرلس الكبير، الرسالة الثانية إلى **Succensus**).

والقديس كيرلس الكبير إنما يتكلم بما تكلم به البابا القديس أثناسيوس من قبل:
[والذي نال جسد الكلمة كان الكلمة يقبله كأنه له لأنه متحد بالجسد لكي نستطيع نحن أن نشارك لاهوتية الإبن].
(القديس أثناسيوس رسالة إلى *Epictat*).
[كان الكلمة غير المتألم متجسداً بالجسد المتألم ليزيل عنه الضعف، **وهذا**

---

(٧) حينما يُقال «تألم بالجسد» فالمسيح الكلمة هو الذي يكون قد قبل الآلام إنما في جسده وهذا قول صحيح يشدد عليه الآباء جداً، وهذا بخلاف ما يُقال أنه «تألم بطبيعة الناسوت». فهذا يعني أن الألم لم يقبله المسيح لنفسه إنما جعله محصوراً في الطبيعة البشرية. وفارق عظيم بين آلام يقبلها الكلمة جسدياً لنفسه وآلام يحصرها اللاهوت في طبيعة غير طبيعته، لأن كون المسيح يقبل آلام الجسد لنفسه، تصير الآلام بهذا آلاماً خلاصية.
[أعترف بالآلام المخلصة التي لربنا يسوع المسيح أنه قبلها لأجل خلاصنا متألماً بالجسد].
[أن اللاهوت قَبِلَ الآلام بالجسد]. (ثاؤدوسيوس بطر يرك الإسكندرية).

(٨) يقول العلماء اللاهوتيون المدافعون عن عقيدة خلقيدونية، أن الأخذ بمبدأ وجود طبيعتين بعد الإتحاد اعتُمد فيه على تعاليم كيرلس الكبير، فإذا اصطدموا بالمواضع التي صرح فيها كيرلس الكبير، بالقول بالطبيعة الواحدة بعد الإتحاد (طبيعة من طبيعتين) يعودون فينسبون لكيرلس الكبير أنه لم يكن يفرق بين كلمة (الطبيعة) وكلمة (الأقنوم) باليونانية: *Physis, hypostasis* فكان يقصد بكلمة الطبيعة الواحدة الأقنوم الواحد. ولكن نحن نعترض بشدة على هذا الإدعاء، والسؤال المحرج الذي يُفسد هذا الزعم هو: هل قال كيرلس الكبير ولو مرة واحدة في جميع مصنفاته أن الإتحاد تم بين *two Hypostasis* بدل *two Physis* ؟؟ الواقع أن كيرلس كان لاهوتياً دقيقاً وكان يدرك تماماً ما هو الأقنوم وما هي الطبيعة!!

كان ليحمل ما هو لخاصتنا و يزيل ذلك (الضعف) عنا و يُلبسنا ما هو لخاصته، رافعاً نفسه قرباناً عنا،... فبلا شك قد صار المخلص إنساناً بالحقيقة ليخلص الإنسان كله].

(القديس أثناسيوس: رسالة إلى Epictat).

فبهذا الجسد الذي في مظهره وطبيعته كل الضعف، وهو في حقيقته جسد الله، تقدم المسيح صائماً ليتجرب من العدو، ولم يصم المسيح لكي يتقي سطوة الشيطان بالجوع، بل ليجعل الجسد على مستوى الروح فيستمد قوته وحياته بالكلمة لا باللقمة!!، حتى إذا انغلب الشيطان بالكلمة تكون الغلبة على مستوى الجسد وتُحسب له، فتُحسب لنا!!...

إذن، فالمسيح **يرفع جسده بالصوم قرباناً لله**، قبل أن يواجه به التجربة. فالألم الجسدي والنفسي الذي عاناه المسيح بصومه الطويل، محسوب أنه تقديس لنا بحد ذاته، وقربان عنا!!...

لقد أسس الرب بالصوم الأربعيني وبالعزلة الكاملة، سر اللاهوت النسكي!!:

فالرب يوجه أنظارنا إلى قوة الشيطان الفائقة عن حدود الجسد وكذلك إلى الخطيئة، و يلهمنا الطريق الذي نسلكه لنقف بالصوم والصلاة والعزلة على مستوى روحي يتناسب وهذه القوة الشريرة: «أما هذا الجنس فلا يخرج إلا بالصلاة والصوم» (مت١٧: ٢١).

بالصوم والصلاة والعزلة، يكف الجسد عن طلب ما له فيأمن الإنسان النكسة، ثم يرتفع بالصلاة والتأمل حتى يصبح على مستوى الروح. حينئذ يواجه الشيطان والخطيئة في قوتها، بل و يتجاوزهما متفوقاً بما يناله حتماً من مؤازرة عليا!!

هكذا يلهمنا المسيح، بصومه، كيف نقف موقف القوة من الخطيئة، و بخوار الجسد وتسليم النفس كلياً لله واحتقار أباطيل العالم نواجه الشيطان!... «رئيس هذا

العالم يأتي وليس له فيَّ شيء» (يو١٤: ٣٠)!... ولكن إلى هنا لا يُحسب النسك الصومي أنه دخل في السر المسيحي، إذ يلزم أن يغتذي الإنسان الخائر من الجوع «**بالكلمة**» الخارجة من حضن الله وفمه ويحيا بها بالفعل!! وعندئذ يدخل الإنسان في سر الفداء ليس كغلبة على الخطيئة فقط، بل كإتحاد «بالكلمة» عندما يرفع جسده قرباناً[٩] بالحق!!

[قَبِلَ ما يخص البشرية والتجارب التي جُرِّب بها، لنتبع آثاره وهو الظافر بكل خطيئة. كالإله صار لنا رئيس كهنة بناسوته، وكالخادم رفع جسده الطاهر لله الآب عنا قرباناً و بخوراً طيباً].

(القديس كيرلس الكبير De Recta Fide).

في اللاهوت النسكي يدخل كلٌّ من **الجسد** بجوعه وعرقه ومرضه، **والنفس** أيضاً باستسلامها للألم والموت في صميم الخلاص من خلال الشركة في آلام الرب، فيتذوق الإنسان معنى الفداء، والذبيحة! و يعاين بنفسه و يلمس بجسده اضمحلال الخطيئة من الأعضاء وتقهقر الشيطان وخدمة الملائكة: «وإذا ملائكة قد جاءت فصارت تخدمه» (مت٤: ١١)!!

* * *

الصوم الأربعيني المقدس:

صوم الأربعين الذي صامه المسيح دخل في الكنيسة، أي في حياتنا، كفعل خلاصي مكمل لآلام الأسبوع الأخير والصلب وممهداً لسر القيامة...

الكنيسة يستحيل أن تعيِّد للقيامة المقدسة بسرها المُحيي، إلا إذا عبرت على الأربعين المقدسة التي فيها تُمهد ذاتها لسر الصليب، وكأنما تستمد القيامة قوتها من

(٩) «فأطلب إليكم أيها الإخوة... أن تقدموا أجسادكم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله عبادتكم العقلية» (رو١٢: ١).

الصليب و بالتالي من الأربعين المقدسة.

القيامة في معناها الكامل، انتصار على الموت و بالتالي على الخطيئة وإنهاء سلطان الشيطان على الإنسان، حيث يحصل الإنسان على جسد جديد غير فاسد، غير قابل للآلام والضعف، غير مائت، بل ومتحد بإبن الله الكلمة اتحاداً أبدياً في سر التقديس والمحبة الذي يفوق العقل.

والقيامة بهذا المعنى الكامل نحن ننتظرها، **ولكننا نأخذ عربونها منذ الآن.** وعربونها هو قوة حقيقية لنصرة الروح على الجسد وسلطان قداسة يفوق كل إغراءات الشيطان وخديعته، إنما كل ذلك في حدود الآلام والضعف والجهد المبذول بلا فتور ولا ملل، من خلال الصوم والصلاة وسكون العزلة في أوقات محدودة.

فالصوم الأربعيني بعزلته الطويلة مهّد في حياة الرب تمهيداً سرياً عميقاً للصلب والقيامة، حيث قام المسيح بالفعل بجسد غير ضعيف وغير متألم وغير مائت، ممجد وفائق جداً على حدود طبيعتنا التي نعيش فيها الآن:

[ويجب أن نعلم أن الجسد هو له خاصة وقد ذاق به الموت، وهو الذي به قام، وبه أبطل عز الموت وأعطى جنسنا موهبة الخلود. وهذا لأنه داس به الموت وأبطل غلبته. ليس هو بعد جسداً ناقصاً لإنسان مثلنا بل جليلاً جداً وفائقاً عن حدود البشر].

(القديس كيرلس الكبير De Recta Fide).

أما نحن، فالصوم الأربعيني بعزلته، وأسبوع الآلام بأحزانه، يوصلاننا إلى حالة نوال رؤية القيامة كعربون وكإحساس حقيقي بها، ولكن غير كامل وغير فائق عن حدود الزمان. فإن كنا نعيّد للقيامة، في حدود الشوق الشديد والإنتظار كل حين على أساس العربون الذي يسلّم إلينا.

الصوم الأربعيني كان بالنسبة للمسيح، عملية قياس مبدئية لأطوال الخطيئة

وعرضها، بجسد لا يمكن أن تترك عليه الخطيئة آثارها المفسدة!

فبالعزلة، في البراري والجبال المقفرة العالية انفصل وجدانياً عن العالم، فاستطاع أن يرى من خلال جسد الإنسان كل ممالك العالم، و يتأمل و يفحص مجدها الكاذب، وعلوها الخفيض، ودوامها الوهمي، وقيامها بعضها على أنقاض بعض... وأحس بالفارق الهائل بين حضن الآب المريح الذي منه خرج، و بين صدر العالم المتضايق الذي إليه جاء!

وبالصلاة، ووقوفه المتواتر في حضرة الله، استفاضت نفسه وارتفعت على الأرض وأحست ذاتها هيكلاً لله عالياً، أعلى من السموات، وقاست مجد هذا الهيكل فاقتنعت بسموه فوق كل أمجاد الناس وكرامات هذا الدهر...

وبالصوم، تسامى الجسد بأُلفة الروح عن موطنه الترابي، فنظر إلى الأرض التي منها أُخذ والتي منها يقتات و يشرب و يتوهم الإنسان أنه يعيش، وتأمل فيما ورثه تراب الأرض من لعنة الخطيئة التي ما فتئت تمتص عافية الإنسان واهتمامه وحبه حتى تلقيه تحت التراب مرة أخرى، فنأى عن الأرض وترابها وحجارتها إذ أحس في جسده بالمصدر الحقيقي الذي به يحيا الإنسان!!...

* * *

— ٤ —

«فبعدما صام أربعين نهاراً وأربعين ليلة جاع أخيراً فتقدم إليه المجرب».

(مت ٤ : ٢و٣).

هنا يُبرز لنا الوحي في النص الإنجيلي العلاقة بين غرائز الإنسان والتجربة !! : «جاع فتقدم إليه المجرِّب». فالجوع يعبِّر تعبيراً طبيعياً صادقاً وأميناً عن نشاط الغريزة بحسب طبيعة الجسد وإلحاحها في طلب ما لها. وهذا ليس فيه عيب أو فساد.

ولكن حينما تضغط الغريزة على الإنسان في طلب ما لها بإلحاح مضطرب، تهبط كل المستويات الفكرية والنفسية إلى مستوى الغريزة والجسد، متأثرة بهذا الإلحاح والإضطراب تأثيراً يكون دائماً أبداً مبالغاً فيه؛ فتطغى الغريزة على الروح وتتجبر عليها.

وفي البداية يبدو هذا الضغط شديداً ومُلحًّا وكأنه ضرورة لا تقاوَم، ولكن إذا لم ينحاز الجهاز العقلي والنفسي إلى هذا الإلحاح المبالَغ فيه، ينجح الإنسان في ضبط جسده فتهدأ الغريزة وتكف وتتراجع وتسكن !!

فالغرائز ليست شراً بذاتها فهي من وضع الله، ولكن لو خضعنا لإلحاحها المبالَغ فيه وسلمنا لقيادتها الثائرة، أوصلت الإنسان إلى مستويات التعدي وأوقعت الإنسان في يد الشيطان الذي يتخذها بيتاً له وآلة ضد الإنسان نفسه !...

*

— ٥ —

«جاع أخيراً ...»

(مت ٤ : ٢).

من الملاحظات الدقيقة التي تكشف لنا تأملاً بديعاً في طبيعة المسيح، قول الكتاب أنه جاع، ولم يقل كما قال عن بطرس لما جاع أنه: «واشتهى أن يأكل» !! (أع ١٠ : ١٠).

فالكتاب يوضح، بالجوع، عمل الغريزة الطبيعي في جسد المسيح حسب حدود الطبيعة البشرية السليمة تماماً... ولكن لا يذكر عنه أي ميل إلى الشهوة، لأن الميلان إلى الشهوة يفيد انحياز الكيان النفسي والروحي للغريزة وهبوطها إلى مستوى الأرض !!

[قال الحكيم كيرلس (الكبير) في كتابه الكنوز الثاني أن الخوف والجوع وما يشبههما قبلها المسيح[١٠] **ولكن لم يُضبط بهما**].

(القديس ساويرس الأنطاكي عن كيرلس الكبير).

هنا يتضح تماماً أن طبيعة المسيح ليست فقط بلا خطيئة، بل وأيضاً غير مائلة إلى الخطيئة. فكون الجسد بلا خطيئة أصلية فهذا مقطوع به بسبب الحبل المقدس والميلاد البتولي الطاهر، ولكن كون الجسد غير مائل للخطية، أو بتعبير كيرلس الكبير غير مضبوط بإلحاح الغريزة، **يجوع ولكن لا ينضبط بالجوع! فهذا عمل فائق على الطبيعة البشرية وذلك بسبب اتحاده اتحاداً كلياً «بالكلمة»**؛ «فالكلمة» بينما يقبل آلام الجسد وضعفه إلا أنه لا يقبل مطلقاً أي ميل نحو الخطأ.

---

(١٠) قبول «**الكلمة**» لآلام الجسد لم يكن اضطرارياً بسبب الإتحاد بالجسد ولكن بالإرادة حسب المسرة. فهو تألم وصلب بإرادته وحده!

[فمن قال إن الجسد الذي اتحد به الكلمة أنه صيره قبل القيامة غير متألم بالآلام — التي ليس فيها خطيئة — أي أنه خيال وشبه ، فليكن محروماً ، ومن يقول إن جسد الرب جسد هالك ، أي أنه يقبل الخطيئة ، فليكن محروماً].
(البابا ثيئودوسيوس بطريرك الإسكندرية).

وهنا تتجلى قوة العقيدة القائلة : « **طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد** » ، إذ أن اللاهوت والناسوت **يعبِّران معاً في المسيح عن طبيعة جديدة للإنسان لا يمكن** أن تنضبط بميل الشهوة المنحرفة الناتجة عن إلحاح الغريزة !!.

إن الكلمة هنا ، أي « اللوغس » لا يتحكم في الجسد ويمنعه قسراً عن الميل إلى الشهوة كأنه طبيعة أخرى غريبة عنه ، ولكن بسبب الإتحاد الذي جرى بين الكلمة والجسد « أقنومياً » صار للجسد فضيلة اللاهوت وكماله :

[نحن لا نقول إن المسيح عن طريق جسد هانىء لا يحس أو منفصل عن الإحساس أصبح لا يشعر برغبة الخطيئة ، **ولكن بسبب كمال الفضيلة ، وبجسد لم يولد بالشهوة** أصبح ليس له شهوة الخطيئة].
(القديس أوغسطينوس Op. Imerf. IV 48.).

وهذا يوضح أن جسد المسيح تقوَّى باتحاده باللاهوت مع احتفاظه بكل الخصائص الطبيعية البشرية التي له ، وهذا يوضحه القديس أثناسيوس بقوله :

[كيف ، وبأي حال نعتقد ، أن الجسد الذي افتداه الكلمة وأحياه صار زيادة في اللاهوت بالنسبة للكلمة ؟ **بل الجسد هو الذي حصل له زيادة كبيرة باتحاده بالكلمة** ، لأنه مائت ، فصار غير مائت (بالقيامة) ، وهو نفساني فصار روحانياً ، وهو من الأرض فتجاوز السموات (بالصعود)] !!
(القديس أثناسيوس إلى Epictat.).

بذلك ينجمع في جسد المسيح طبيعة الإنسان ، التي أخطأت وصارت تحت الألم

والموت ، متحدة تماماً وواحدة مع عدم الخطيئة وعدم الميل إليها ! لا كأن عدم الخطيئة أو عدم الميل إليها شيء آخر منفصل عن الجسد أو خارج عنه يؤازره ويضبطه من الخارج ؛ **بل له خاصة !!**

[لو لم يُظهر عدم الخطيئة في الطبيعة التي أخطأت فكيف يمكن أن تدان الخطيئة في الجسد ؟].
(القديس أثناسيوس ضد أبوليناريوس ii, 6).

وهكذا انجمع في الجسد قوة الموت وقوة عدم الموت معاً ، فانبثق منه قوة الخلاص بالضرورة الحتمية لما غلبت قوةُ عدمِ الموت قوةَ الموت ، وقام الجسد منتصراً !! ثم انتقلت إلينا هذه الطبيعة بكافة مميزاتها إذ سلَّمنا المسيحُ جسدَه بهذه القوة الغالبة !!

[كان يلزم من أجل خلاصنا أن كلمة الله يصير إنساناً لكي يجعل جسد الإنسان ، الذي تعرض للفساد ومرض بالشهوة والملذات ، خاصاً له ، ولكونه هو الحياة والمحيي يبطل الفساد ، لأنه بهذا تصير الخطيئة في جسدنا مائتة].
(القديس كيرلس الكبير : رسالة إلى Succen).

وهكذا في ضوء العقيدة يصح القول أن المسيح سلمنا بالفعل جسداً فيه قوة عدم الخطيئة وعدم الميل إلى شهوتها ، لكي نتحصن بهذا الجسد إلى الأبد ، ليس عند القيامة فحسب — الأمر الذي يملأنا قوة بالرجاء — بل وأيضاً لكي يكون هذا الجسد عينه إذ نأخذه بالإيمان يصير فينا عربوناً لهذه الحياة الجديدة منذ الآن نذوقها فقط عندما نتمثل به !! وإذ نذوق هذه النصرة جزئياً نذوق بالفعل بهجة الخلاص وفرحة الظفر في سر يتجلى في قلوبنا وعقولنا كقيامة سابقة على القيامة !!

[لقد قبل كل ما يخص البشرية والأفعال التي جُرِّب بها **لنتبع آثاره الآن** ، وهو الظافر بكل خطيئة ، كالإله صار لنا رئيس كهنة بناسوته ، وكالعبد رفع جسده الطاهر لله الآب ذبيحة عنا وبخوراً طيباً].
(القديس كيرلس الكبير : De Recta Fide).

[لهذا قيل أن **الجسد المقدس** الذي صار خاصة لله الكلمة هو بدء لأعمال الله، أبطل به عز الموت، وأباد قوة إبليس، وسبى الجحيم وكسر متاريسه الحديدية (الخطيئة)، **ودفع لنا ذلك الجسد المقدس والدم الكريم بدءً وعربوناً للحياة الأبدية**].
(البابا ثيئودوسيوس بطريرك الإسكندرية: رسالة إلى القديس ساويرس الأنطاكي).

جاع أخيراً:

ينوِّه الوحي المقدس أن الجسد بقى صامداً مدة طويلة دون أن يطلب ما له، ليس بالقمع ولكن كطبيعة، إشارة ضمنية إلى سمو طبيعته، بنوع ما، وتفوُّقها فوق الأمر المعتاد (جاع أخيراً)، وذلك كما سبق وعرفنا بسبب اتحاده بالكلمة. فإن كان بولس الرسول استطاع بسبب النعمة التي فيه أن يقول: «قد تدرَّبتُ أن أشبع وأن أجوع وأن أستفضل وأن أنقص» (في ٤: ١٢)، و«أقمع جسدي وأستعبده» (١كو ٩: ٢٧)، فماذا يمكن أن يقوله المسيح؟

[إن الجسد الذي وُلد به مملوء من كمال اللاهوت].
(القديس أثناسيوس To Epictat).

[لهذا نال الجسد منه قوة لأنه هو القوة وهو الحياة].
(القديس أثناسيوس: تجسد الكلمة ٢١: ٥).

فالكتاب لا يتهالك على وصف المسيح بالضعف وسرعة الجوع، متلهفاً كاللاهوتيين، خشية الأوطاخية، ولم يعتنِ أن يبرز قوة لاهوته دائماً فوق ضعف الجسد لئلا ننسى أنه مثلنا حسب البشرية تماماً، لذلك قال الكتاب: «جاع أخيراً»، **مُظهراً قوة ضعفه**.

[ولكن ألم يكابد ألم الجوع؟ نعم **إنه جاع كما يليق بخواص** جسده، على أنه لم يمت من الجوع من أجل الرب الذي لبسه].
(القديس أثناسيوس: تجسد الكلمة ٢١: ٧).

ولكن يلزمنا أن نعرف أنه حتى هذا الجوع الذي تحرك في الجسد بحسب الطبيعة، كان الرب قادراً أن يضبطه ويمنعه: «لي سلطان أن أضعها ولي سلطان أن آخذها أيضاً» (يو ١٠: ١٨)، ولكنه لم يفعل ذلك أبداً بل قبله تماماً، تاركاً جسده يتحرك طبيعياً و يعبِّر بمشاعره عن كل ما يصيبه و يؤلمه بحسب خواصه الطبيعية.

[صار مثلنا ما خلا الخطيئة، **شارك أعراضنا اللائقة بطبيعتنا وقبل الجوع**، لأن الجوع ليس فيه خطيئة، فبعدما صام أربعين يوماً وأربعين ليلة بعد ذلك جاع **في الوقت الذي سمح للطبيعة أن تطلب ما هو لها خاصة**].
(البطريرك ساويرس الأنطاكي: عن القديس غريغوريوس النيسي)

— ٦ —

«جاع فتقدم إليه المجرب».
(مت ٤: ٢و٣).

حينما تحرك الجسد بالجوع تحرك الشيطان للملاقاة، فقد صار له مفتاح يجرب به في هذا الباب الذي يبدو مغلقاً في وجهه!!

[لقد بدأ الشيطان تجربته عندما تأكد أن المسيح قد أضناه الجوع، ففي جوع الرب وجد الشيطان له معيناً (Synergon) للتجربة. لأنه يعلم من خبرته معنا أنه يستطيع أن يغلبنا وقت الضعف عندما نضطر لقبول محاوراته وحججه].
(القديس كيرلس الكبير في شرح إنجيل لوقا P.G. 27. p. 528.).

والرب لا يتعالى على الملاقاة، لأنه لبس جسداً قابلاً للموت يعطي للشيطان حقاً مبدئياً في المقابلة!! وقد جعل الرب من الجوع الذي أودى بنا سابقاً إلى الشهوة والتعدي بكل أنواعه ومعانيه فرصة للظفر بالعدو وقطع صلته بالجسد إلى الأبد.

[ولكن هذا الواحد من غير افتراق يفعل الآيات ويقبل الآلام

كمشيئته، أعني آلام التدبير[11] التي لا إثم فيها بحسب إنسانيته، **بإرادته جاع** لما صام أربعين يوماً عنا، **فأمهل إبليس أن يدنو منه**].

(القديس ساويرس الأنطاكي: رسالة إلى البابا ثيئودوسيوس بطريرك الإسكندرية).

إذن فواضح أن الصوم والجوع اللذين قبلهما الرب بالجسد يدخلان أصلاً في أعمال التدبير الخلاصية، لأن بهما استطاع «الكلمة» أن يتقابل مع العدو وبالتالي الخطيئة، لينهي على صلة قديمة[12] بين الشيطان وبين طبيعتنا كانت مفتاحاً أساسياً للخطيئة، وانتقلت إلينا من آدم، كما هي، تحت إغراءات متعددة:

[ولم يأكل شيئاً في تلك الأيام. فلما تمت جاع، هكذا وجب للذي هبط **إلى الإمتياز**[13] **أن يقاوم الشيطان الذي كان غالباً لنا في الأول، ويقاتله عنا ويحطه إلى أسفل، ويعريه من قوته**، لأجل هذا الفعل أتى بالجسد، أعني الوحيد القدوس **لكي يطهرنا** لأننا قد شاركنا كماله].

(القديس كيرلس الكبير De Recta Fide).

*

---

(11) التدبير، كما قلنا، اصطلاح لاهوتي يفيد كل **أعمال الله التي أكملها بالتجسد لتكميل الفداء والخلاص. فالألم الجسدي محسوب أنه فعل تدبيري مطابق لمشيئة إلهية.**

(12) أي الصلة التي أنشأها آدم بالتعدي التي بدأت بالأكل وبالشهوة بإغراء التأله، التي انتهت بالموت!

(13) هبط إلى الإمتياز: اصطلاح آبائي لاهوتي يشير به كيرلس الكبير هنا إلى قول بولس الرسول: «ولكن الذي **وضع** قليلاً عن الملائكة يسوع نراه **مكللاً بالمجد** والكرامة من أجل ألم الموت» (عب ٢: ٩). فالهبوط هنا يشير إلى التجسد بجسد متألم، والإمتياز يشير إلى المجد الذي حصله الجسد فوق الملائكة. لذلك يقال بنوع من الإختصار أن الأقنوم قبل إليه الجسد كإمتياز، (دون أن يضاف إليه شيء)، لأن مجد الكلمة هو كما هو قبل وبعد التجسد. أنظر القديس كيرلس الكبير في De Recta Fide

— ٧ —

«وقال له إبليس إن كنت إبن الله فقُلْ أن تصير هذه الحجارة خبزاً»

(مت ٤: ٣).

لا ينبغي أن نتسرع ونقرر مقصد الشيطان في هذه التجربة. ولكن علينا بهدوء أن نتأمل في إجابة الرب عليه، لأن الرب وحده هو الذي كشف قصده وخديعته المملوءة تضليلاً. فعندما جاوبه الرب: «مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا **الإنسان** بل بكل كلمة تخرج من فم الله» (مت ٤: ٤)، نكتشف في الحال أن العدو يحاول أن يوهم طبيعتنا أن حياتنا متعلقة كلياً بالأرض، وهو يستغل حالة الجوع الشديد (أو الحرمان بأي نوع) الذي يبدو مميتاً، ويربطه بالشبع الذي يبدو وحده حياة، فيقنعنا — غشاً — أن الأكل يُحيي الإنسان!!

هذه تبدو حقيقة إذا أخذناها بدون حذر وتروٍّ شديد، كما بدت سابقاً لآدم مشورةُ الشيطان أنه بالأكل من شجرة المعرفة يصير الإنسان كالله، ولكن الخديعة تستتر وراء هذه الحقيقة في أن الأكل والشبع والمعرفة بدون الله لا تُحيي ولا توصل إلى راحة. فكل حق بدون الله هو خديعة، وكل حياة بدون كلمته هي موت!!

إذن، فحسب إجابة المسيح نتبين أن الأكل وحده ينتهي بالإنسان إلى الموت حتماً... أما حياة الإنسان فلا يمكن أن تُحفظ وتدوم بدون كلمة الله التي أوجدتها وأحيتها!!

ويلاحظ أن الشيطان يخاطب المسيح **كإبن الله**، والمسيح يرد عليه **كإنسان**. فالشيطان يحاول أن يخرج بالتجربة إلى أعلى من قامتها، والمسيح يردها في الحال إلى مستواها!!

لذلك نرى في رد المسيح عمقاً غاية في البعد، وبساطة غاية في الوضوح!!

ولكن كيف هُزِمَ الشيطان بهذه الإجابة وانقهرت قوته؟

لقد حاول الشيطان أن يوصل المسيح ـ عن طريق الجوع ـ بالأرض لتكون له مصدر حياة. ولكن لما تحقق الشيطان عجزه عن أن يستخدم سلطانه على جوع المسيح و يُميله إلى الشهوة ليشتهي الخبز الأرضي ليحيا به، إذ واجه سموّه في هذا الإعتبار، اقترح على المسيح أن يصل هو بسموّه إلى ذلك!! عن طريق المعجزة: «قل لهذه الحجارة أن تصير خبزاً»!...

فلو انتبهنا أن المسيح كان يلبس طبيعتنا تماماً، لعرفنا أن الشيطان كان يستخدم مع المسيح بالفعل كل سلطانه ومهارته السابقة التي ربط بها طبيعتنا من آدم إلى المسيح، جاعلاً من غرائز الجسد منفذاً لإثارة الشهوات، ومن الشهوات مسقطاً للخطيئة والتعدي.

والآن، قد آن الأوان لينكسر هذا الرباط عن هذه الطبيعة المسكينة المنحنية، بنت آدم التي ربطها الشيطان خمسة آلاف وخمسمائة سنة بالضعف، وقد لبسها المسيح كما هي بإنحنائها وضعفها (بدون خطيئة) لكي يحلها من سلطان الطاغية!...

فرفَضُ المسيح لمشورة الشيطان وهو حامل لجوعنا وذلنا تماماً، رَفَع الطبيعة البشرية فوق قوة الشيطان، وأقامها من إنحنائها فقامت واستقامت...

وتمسُّك المسيح وهو في إعياء الجوع المميت بأن حياة الجسد ليست بالخبز وحده بل بكلمة الله، أقام كلمة الله فوق الخبز، ورفع الجسد فوق الجوع والغريزة والموت، وأوصل حياة الجسد بكلمة الله ليحيا الإنسان فيه و به إلى الأبد!...

إن كسرة الشيطان تبدو عظيمة جداً ومهولة، إذا انتبهنا إلى أنه بمشورة واحدة تقبلها آدم، دخلت إليه الخطيئة، و بخطيئة واحد وهو آدم، ملكت الخطيئة على طبيعة الإنسان كله والعالم بأجمعه!!

فالآن، برفض المسيح لنفس المشورة قطع صلة الخطيئة بالجسد مرة واحدة وإلى الأبد.

وإذ تسلمنا من المسيح هذا الجسد الجائع والحي بكلمة الله، لنولد منه ونحيا به، دخلت النصرة طبيعتنا وملكت الحياة الأبدية فينا برغم الموت و برغم الشيطان!...

وهكذا صارت كسرة الشيطان أمام المسيح، كسرة ممتدة أمام كل إنسان يلبس المسيح... وإن بدت نصرتنا الآن عاجزة بعض العجز بسبب ضعف الطبيعة، فسوف تبلغ نصرتنا أَوجها حتماً حينما نخلع هذا الضعف بالقيامة من الأموات!!

[إنه لما جربه الشيطان في البرية صبر له، لا لأنه محتاج لتجربة بل ليبطل قوة المجرب، ولم يقاتل العدو بقوة لاهوته، بل ظفر به بالجسد القابل للألم والموت، لكي **بهذا الجسد لا تدخل الخطيئة إلى العالم مرة أخرى**، لأن بالخطيئة دخل الموت على الجميع، **وبهذا الجسد تُمحى رجاسة الخطيئة و يظفر هذا الجسد برئيس الخطيئة**].

(القديس ساويرس الأنطاكي: عن غريغوريوس النيسي).

لقد رفع المسيح الصوم الجسدي وآلامه إلى فعل تدبير إلهي، وأكمل به شيئاً من الخلاص لا يُستهان به، و بذلك انصبغت الأصوام في الأرثوذكسية بصبغة لاهوتية لا كمقاومة فردية للشيطان والخطيئة، بل كشركة في انتصار محقق أكمله الرب عنا لقبول نتائج فائقة على إمكانيات الإنسان!!

[كل الأفعال التي لناسوته نوجهها لتدبير تجسد الكلمة].

(القديس كيرلس الكبير: De Recta Fide).

[لأنه هو الله الكلمة الذي هبط إلى حدود البشرية كالتدبير من أجلنا... فصار طريقاً **لطبيعتنا إلى القيامة**].

(القديس كيرلس الكبير: De Recta Fide).

[لم يخطىء ولم يوجد في فمه غش لأنه كان من الواجب أن الطبيعة المغلوبة بآدم تلبس هي أيضاً تاج الظفر... أنه من الأمور العظيمة أن يظفر الرب بإبليس، فلولا أن المسيح ربنا ظفر به فيه (أي في الجسد) وقبل الأعراض ـ التي لا إثم فيها ـ في جسمه الذي هو مساوٍ لنا في الجوهر، وقَبِلَ الآلام، وأمات الموت

بجسده، ما انكسرت شوكة الموت التي هي الخطيئة ولا بطل سلطان الموت، فكيف لا نفتخر بهذا الظفر وها قد خرجنا من أسر العبودية؟].

(البابا ثيئودوسيوس بطريرك الإسكندرية: رسالة إلى القديس ساويرس الأنطاكي).

— ٨ —

«ثم أخذه إبليس إلى المدينة المقدسة وأوقفه على جناح الهيكل، وقال له إن كنت إبن الله فاطرح نفسك إلى أسفل لأنه مكتوب أنه يوصي ملائكته بك فعلى أياديهم يحملونك لكي لا تَصدِم بحجر رجلك! قال له يسوع: مكتوب أيضاً لا تجرب الرب إلهك».

(مت ٤: ٥—٧).

السؤال الذي يواجهنا هنا هو ما علاقة هذه التجربة بالصوم؟ وإلى أي موضع في المسيح يصوب العدو سهمه؟ ثم ما هي علاقة هذه التجربة بالسابقة؟

نلاحظ أن التدرج في التجربة قوي جداً وعميق وهو يكشف بالفعل خطة الشيطان ومهارته، ولكنه في جملته لا يخرج عن حدود ما يحدث لطبيعتنا...

فبصوم الجسد واحتمال ألم الجوع بنجاح مدهش هكذا، ترتفع قوى النفس حتماً إلى أوج حدودها فتصير في حالة رفعة وسمو، وإذ يكون الجسد الصائم أربعين يوماً في خضوع كامل لمطالب الروح، يصير هو أيضاً في حالة خفة يمكن بها أن يتحرك مع النفس حتى يسهل بالفعل رفعه إلى جناح الهيكل وهبوطه أيضاً بدون خطر...

إن هذه التجربة منصوص عنها في تاريخ الآباء أن كثيرين من القديسين وقعوا فيها وسخر منهم الشيطان، فبعدما رفعهم في الجو بالفعل، تركهم فسقطوا... ولكن نسمع في الإنجيل أن الروح القدس حمل فيلبس من أريحا إلى أشدود و بالعكس!

وهنا نجد أن هذه التجربة مصوبة إلى نفس المسيح البشرية المتأججة بفعل الصوم والصلاة، فإن كان حقاً يحيا «**بالكلمة**» وليس بالخبز، فليُلْق بنفسه من فوق الهيكل، ولا خوف البتة فالملائكة أيضاً تحفظه «كالمكتوب»!

نرى أن هذه التجربة مبنية ومترتبة على التجربة السابقة إلا أنها عكسها تماماً، فإن كانت الأولى رجعة إلى شهوة الجسد وخبز الأرض حيث ينحصر الإنسان في واجبات وفروض وقوانين المادة وإشباع الجسد والتركز فيه، نجد أن التجربة الثانية تدعو إلى التسامي الروحي بالنفس مع تجاهل لقوانين الجسد وثقله ومطالبه، حيث هنا دعوة إلى التركز في النفس والتعالي بها فوق مستوى الإنسانية.

فالملاحظ أن التجربة الثانية جاءت مُحكمة، مناسبة تماماً لحالة الجسد والنفس، مستغلة الرفعة الروحية القائمة على التواضع والصوم والصلاة لكي تطوح بها في التعالي النفساني والعظمة...

في التجربة الأولى ظفر المسيح في مجال الجسد والشهوة، ومحاولة الضغط على الجسد ليميل ناحية الأرض. فاستطاع الرب أن يحطم هذه الميول و يفك الأوصال القديمة، و يربط الجسد بالحياة الأبدية «بالكلمة». أما هنا في هذه التجربة فالسهم مصوب لمجال النفس حيث يحاول الشيطان الضغط على النفس ليخرج بها عن مجال اتضاعها وصومها!!

في التجربة الأولى رفع المسيح عن الطبيعة البشرية ضربة الشمال، وفي هذه التجربة أصبح عليه أن يرفع عنها ضربة اليمين.

[وأخذ الرب شكل العبد، وهزم العدو بالاتضاع، لأن آدم في البدء بالكبرياء والإعتداد بالذات أسقطته الحية].

(القديس مقاريوس الكبير: عظة ٢٧: ٥).

وهنا يتوارد عرضاً سؤال:

هل للمسيح نفس إنسانية مثلنا تماماً؟

ـــ يرد القديس كيرلس على هذا السؤال:

[الكلمة الذي من الله صار جسداً ولكنه لم يستحِلْ (أي يتحول إلى جسد)، فهو إنسان كامل من نفس وجسد، لذلك نقول أنه بجسد ونفس، وصار الكلمة واحداً مع النفس الناطقة والجسد كالأقنوم، وصار إنساناً وسُمي إبن الإنسان، ولم يتخذ له شكلاً وحده غريباً].

(القديس كيرلس الكبير: رسالة إلى نسطور).

ثم يتوارد إلينا سؤال آخر:

هل للشيطان مدخل لنفس المسيح وهي متسامية بالصوم والصلاة؟

ـــ الرد على هذا، هو أن الشيطان لا يتقدم للنفس المتسامية بالتقوى كمن يمنعها عن الصلاة والتقوى، ولكن كمادح ومُزكّي وعارِض أفكار تبدو أنها متسايرة مع التقوى والحرارة الروحية، إذ يشير بالمزيد منها أو بعرضها على الناس على سبيل الإنتفاع أو التحقق منها و برهنتها بالمعجزة!! حيث تحمل مشورته دائماً و بلا استثناء عنصر الخداع والتضليل، لتشتيت حرارة النفس وفصلها عن مصدر عزائها وقوتها وحياتها، و بالتالي يجعلها تتمركز حول نفسها عندما ينبهها إلى عظمتها وقداستها وقدرتها، فيلقيها في الكبرياء و يقطعها عن الله...

هذا نجده قد تم بالفعل لآدم، فصار من أخطر المداخل التي يطوح بها الشيطان أولاد الله الأقوياء!... فالتجربة الثانية هي في حقيقتها **تجربة الأقوياء!**... لذلك نجد القديس لوقا يضعها كنهاية للتجارب الثلاث التي تجرب بها الرب.

«مكتوب أيضاً لا تجرب الرب إلهك»!!

(مت ٤: ٧).

المسيح هنا يكشف عن عنصر الخداع الذي في مشورة الشيطان، ويحول الإجابة عليه إلى قانون عام! مؤداه:

«إن كل عمل يعمله الإنسان اعتماداً على تقواه و بره ولا يكون فيه اتضاع وخضوع لمشورة الله، فهو يُحسب على الإنسان كأنه تجربة لله مهما كان هذا العمل لائقاً أو نافعاً».

أما تجربة الله هنا فتعني أن الإنسان بمثل هذا العمل، يُلزم الله على الموافقة ويجبره على إتيان المعجزة، وهذا فيه خطر الرفض المحقق، لأن «الله لا يعطي مجده لآخر».

[إن الله لا يُظهر الإحسان للذين يمتحنونه بل للذين يؤمنون به، والمسيح نفسه لم يعمل آية واحدة للذين كانوا يجربونه].

(القديس كيرلس الكبير: شرح إنجيل لوقا P.G. 72, p. 532 C.).

وهكذا يكشف المسيح عن الخطر المختفي في هذه المشورة، وهو دفع الشيطان للإنسان لإتيان عمل يبدو أن فيه تمجيداً لله وللتقوى، ولكنه في حقيقته ينتهي برفض الله للإنسان كمتعالٍ وناظرٍ إلى ما هو فوق قامته...

ولكن بينما نجد المسيح هنا يمتنع نهائياً و بكل إتضاع عن الإستجابة لصنع مثل هذه المعجزة التي تعتمد في مشورتها على تزكية النفس والإعلان عن برهان، وهي تخفي في طياتها معنى تأله النفس، إذ بنا نجده في موضع آخر يصنع معجزة تفوقها قوة هي السير على الماء... و بالمقارنة يتضح لنا الفارق الهائل بين المعجزتين:

في معجزة السير على الماء نرى النفس البشرية تابعة «**للكلمة**» ومحمولة بقوته لأن المسيح سار على الماء كإله حسب مسرته، أما في المعجزة المقترحة من الشيطان فنرى أن المشورة منصبّة على النفس البشرية لتكون قائدة والكلمة يكون تابعاً وخاضعاً، وهذا أمر مُحال لأنه معكوس كأعمال الشيطان.

والدليل على أن المعجزة المقترحة من الشيطان كانت مطلوبة على مستوى النفس البشرية، هو قول الشيطان بضرورة معونة خارجية من الملائكة حتى لا يحدث خطر لضمان نجاح المعجزة!! على أساس أن المسيح يعملها من نفسه!!

وهنا في هذه التجربة نرى المسيح يحفظ نفسه من الخدعة و يرد المشورة فارغة بكل اتضاع وخضوع لله.

وبهذا يكون قد حفظ طبيعتنا فيه من خداع النفس وغوايتها بمشورة الشيطان، و يكون قد رفع طاقة طبيعتنا الساقطة إلى حدودها الأولى ورفع عنها العثرة في الله عن طر يق التقوى الكاذبة، وحصَّنها ضد شهوة التأله والتفرد عن الله إذ جعلها واحداً معه!!

فلو تأملنا في قوة التجربتين وكيف حولها المسيح في جسده ونفسه إلى تحصين كامل ضد السقوط عن طر يق الجسد أو النفس بغواية الشيطان، لأدركنا قيمة هذا العمل الخلاصي لأن به قد تم فك رباطات الخطيئة التي تمكنت من الجسد والنفس.

[هكذا نفهم أن عمانوئيل الكلمة تألم بالجسد وهو غير متألم باللاهوت (كأنه يقول عن نفسه): دعت الحاجة إلى أن **أتّحِد بالجسد لكي أحل رباطات الخطايا**، وصُلبت لكي **أبطل خطايا كل أحد بجسدي**].

(القديس كيرلس الكبير: رسالة عن المسيح واحد
Quod unus sit Christ.).

ومن كلام القديس كيرلس يتبين لنا أن عملية الخلاص تمت على مرحلتين: الأولى **حل رباطات الخطايا**، والثانية **إبطال الخطية نفسها**. أما الأولى فقد أكملها بتجاربه وآلامه النفسية التي احتملها عنا بجسده ونفسه لذلك قيلت أنها **آلام مشفية**، وأما الثانية فقد أكملها بآلام الموت فقيل عنها أنها **آلام محيية**!!...

[قد استلم هذه الضعفات منا (عن طريق اتحاده بجسد بشريتنا) وهو يرفعها إلى الآب متشفعاً عنا، وحتى إذ تصبح (هذه الضعفات) فيه يمكن أن يبطلها].

(القديس أثناسيوس: المقالة الرابعة ضد أر يوس).

[وكما أخذ ضعفنا عليه ـــ وهو غير ضعيف ـــ وجاع ـــ وهو الذي لا يجوع ـــ فإنما لكي يرفع ما هو لنا حتى يبطله عنا، كذلك أيضاً في العطايا التي أتت عليه من الله استلمها أيضاً عنا حتى باتحاد الناس معه يصير لهم نصيب وشركة فيها بالرغم من ضعفهم].

(القديس أثناسيوس: المقالة الرابعة ضد أر يوس).

ـــ ٩ ـــ

«ثم أخذه أيضاً إبليس إلى جبل عال جداً وأراه جميع ممالك العالم ومجدها وقال له، أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي، حينئذ قال له يسوع: إذهب ياشيطان لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد».

(مت ٤: ٨ـــ١٠).

لقد أدرك الشيطان هزيمته فيما يخص الجسد والنفس، وقد ضاقت دائرة خداعه وانحصرت في جزء واحد من طبيعة الإنسان متبقٍّ لها!!

والآن فالشيطان يجازف بنفسه و يعرض كل سلطانه على المسيح إن هو سجد له!

فإلى أين يصوب الشيطان سهمه الأخير؟

لقد أتى المسيح من حضن الآب لكي يسترد العالم إلى خضوع الله ويجمع شتات الأمم و يُدخلها ملكوت الله، وما من وسيلة إلى ذلك إلا بالقبض على الشيطان ور بطه وإلقائه خارج العالم: «الآن دينونة هذا العالم، الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجاً» (يو١٢: ٣١). ولكن الثمن باهظ جداً جداً ومرعب للغاية... الصليب... هذا كان يعلمه المسيح وكان يعلمه أيضاً الشيطان!

فلماذا هذا كله؟... أنا مستعد أن أعطيك كل ممالك العالم بدون صليب، فقط أسجد لي!

وواضح أن الشيطان هنا يخاطب شخصية المسيح الممثلة للجسد الضعيف الخائر من الجوع والمرسوم أمامها أهوال الصليب الآتي، لقد انتهز الشيطان أفضل فرصة ليثني المسيح عن هدفه أي الصليب بأن لاقاه وهو في أشد حالات الجوع والإعياء!!

وهنا السؤال:

وما صلة تجربة المسيح هذه بطبيعتنا نحن؟

السهم هنا مصوب إلى **الذات البشرية** التي يحملها المسيح عنا في جسده، التي أضناها الجهاد والجوع والعزلة والصلاة **من أجل الهدف والغاية** الموضوعة أمامها!

هنا عرض سهل ــ فيه شيء من التنازل للشيطان ــ حيث الإنسان يتفادى به في الحال هذا الجهاد كله وهذه المرارة والصوم والعزلة والمذلة والحرمان بكل أصنافه!! إنه إغراء قاهر في وقت عصيب!!

الذات هنا في إعياء، والراحة سهلة، وإغراء المجد السريع ممكن، فقط مطلوب تنازل للشيطان ومهادنة مع الخطيئة!!... آه كم من آلاف وملايين سقطوا هنا!!

ولكن هل للمسيح ذات بشرية مثلنا تماماً؟

الكتاب المقدس يُظهر لنا المسيح أنه إنسان كامل. فالجسد الذي أخذه من العذراء جسد بشري كامل الخواص: جسداً ونفساً وعقلاً بكل صفاتهم. لذلك يُقال أن المسيح الكلمة تجسد وتأنس أيضاً؛ أي صار إنساناً، ولكن ليس هذا يعني أنه تحول إلى جسد أو إلى إنسان ولا أضاف إنساناً آخر إليه. وإنما الجسد البشري الذي أخذه الكلمة من العذراء واتحد به، بما أنه كامل وله كل ما للإنسان، صار بالتالي كل ما للإنسان للمسيح الكلمة.

[ولما صار إنساناً لم يتخذ لنفسه إنساناً كما يقول نسطور، بل نؤمن أنه تجسد وبقى ثابتاً فيما له أي الإله، لأجل هذا يُقال عنه أنه ــ أي الكلمة الإله ــ جاع وعطش وتعب في الطريق وتألم وقلق وحزن وقبل الآلام التي ليس فيها لوم كإنسان بالحقيقة **وهو الإله** بالحقيقة، وصنع علامات اللاهوت والناسوت **معاً** (أي بآن واحد)].

(القديس كيرلس الكبير: الرسالة الأولى Succen).

ولا يُفهم من هذا أن المسيح صار إلهاً وإنساناً موجودين معاً كابن الله وابن الإنسان بطبيعتين وشخصين، هذا ضد الإيمان، ولكن المسيح هو الإله **وهو هو** الإنسان، وابن الإنسان! **في آن واحد!** ــ هو ابن الله الأزلي الذي لما تجسد صار أيضاً ابن الإنسان.

فهو الذي يقول: ἐγώ εἰμι أي «أنا هو الكائن بذاتى» التي لا يقولها إلا الله وحده، قالها المسيح «أنا هو ἐγώ εἰμι نور العالم» (يو٨: ١٢)، «أنا هو ἐγώ εἰμι الطريق والحق والحياة» (يو١٤: ٦). وهو نفسه نسمعه يقول: «ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني **وأنا إنسان** قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله» (يو٨: ٤٠).

وهذا يعني أنه بسبب أن ἐγώ εἰμι «أنا هو الكائن بذاتى»، قد تجسد، إذن فقد **أصبح للمسيح «أنا» واحدة، ذات واحدة، يعبّر بها عن أقنومه الإلهي وعن بشريته بآن واحد!!**

ومن هذا يتضح أن ذاتنا البشرية الضعيفة الذليلة المنسحقة قد لبسها المسيح وقبلها لنفسه القدوسة المباركة، فصارت ذاتنا فيه في مجد وكرامة لا يستهان بها!!

ولكن الذات البشرية التي يحملها المسيح، وإن كانت مثلنا تماماً بكل ضعفها، إلا أنها صارت بسبب اتحادها بأقنوم الكلمة في حالة أعلى مما هي لنا بكل تأكيد لأنها أصبحت مهيأة للمجد الأبدي الذي يفوق مجد الملائكة وكل رياسة وسلطان!!

«أيها الآب مجّد إسمك. فجاء صوت من السماء مجدت وأُمجد أيضاً. فالجمع الذي كان واقفاً وسمع قال قد حدث رعد وآخرون قالوا قد كلمه ملاك. أجاب يسوع وقال **ليس لأجلي صار هذا الصوت بل من أجلكم**» (يو١٢: ٢٨ــ٣٠).

[لأنه هو الله، ومثال تدبير الجسد الذي أخذه قد بينه لنا لأنه صار مثلنا، ولكنه يعرفنا بواسطة (تدبير جسده) أنه **أعلى منا جداً كالإنسان**، وهو على

كل الخليقة كالإله... وقد اتضع على مثال الإنسان، فلو كان قد رفض الأفعال الناسوتية، فكيف كان ينبغي له التواضع الذي صبر عليه؟].

(القديس كيرلس الكبير: De Recta Fide).

إذن فلا يمكن النظر إلى المسيح إلا كأقنوم واحد، شخص واحد، ذات واحدة متجسدة، يعمل أعمال اللاهوت والناسوت **معاً كفعل واحد له**.

[ونحن نقول إن ربنا يسوع المسيح واحد، والأفعال التي للاهوته ولناسوته نحسبها أنها له معاً بالإتحاد].

(القديس كيرلس الكبير: De Recta Fide).

[وبذلك فإن خواص الجسد تقال أنها له لأنه هو في الجسد، مثل الجوع والعطش والتعب والأمور المشابهة التي يتعرض لها الجسد، ومن الجهة الأخرى فإن الأعمال التي أكملها بسلطان «الكلمة» كإقامة الميت وتفتيح عين الأعمى وشفاء نازفة الدم فإن هذه كلها باشرها بجسده(١٤)، فنجد أنه بينما الكلمة يحمل ضعفات الجسد لنفسه خاصة باعتبار آن الجسد هو له خاصة، نجد أن الجسد يؤدي أعمال اللاهوت، لأن اللاهوت كان فيه لأن الجسد جسد الله].

(القديس أثناسيوس: المقالة الثالثة ضد آريوس).

ومن هذا يتضح أن **الذات البشرية** التي حملها المسيح عنا لمّا اتحد بجسده الذي أخذه من العذراء القديسة مريم، هي في حقيقتها **ذات إنسانية كاملة بكل معنى، ضعيفة بطبيعتها، قوية باتحادها بالكلمة**.

***

إذن فالذات البشرية التي حملها المسيح عنا والتي لاقاها الشيطان وهي في

(١٤) هذا التبادل في الأعمال والخواص بين الجسد والكلمة يدعى بالإصطلاح اللاهوتي: Communicato Idiomaton والكلمة الأولى لاتينية والثانية يونانية تفيدان الإتصال والتبادل.

إعيائها لكي يثنيها عن جهادها ويبطل قيمة هدفها، كانت تمثل كل ذات لكل إنسان، والتجربة التي لاقاها هي تجربتنا.

لذلك فوقفة المسيح الصامدة إزاء الإغراء الأخير من الشيطان لزعزعة الذات البشرية في قيمة الجهاد والتعب والآلام المبذولة من أجل الخلاص، تُعتبر نصراً لكل ذات إنسانية تسعى في طريق خلاصها وتأميناً أخيراً ونهائياً للصلة الجديدة التي أوجدها المسيح بيننا وبين الله بالعبادة والسجود بالروح والحق.

[فوجب أن يصير كلمة الله إنساناً ليخلصنا نحن الذين على الأرض، وجسد الإنسان الذي صار تحت الفساد **بمحبة الذات** يجعله خاصاً له ليُبْطِل الفساد الذي فيه، ويزجر حركات الطبيعة التي تكون من محبة الذات].

(القديس كيرلس الكبير: الرسالة الأولى Succen).

[نحن كلنا في المسيح (في التجربة والنصرة)، فالشخصية الإنسانية في عموميتها خُلقت من جديد فيه؛ لذلك دُعي المسيح آدم الثاني، لأنه استطاع أن يوصل إلى طبيعتنا كل نعم سعادة الخلود والمجد، بالمثل كما استطاع آدم أن يوصل إلى طبيعتنا لعنة الفساد والمذلة.

لذلك ففي المسيح تحرر العبد وانفكَّ من عبوديته وارتفع إلى وحدة سرية مع المسيح بالإتحاد لما أخذ المسيح صورة العبد. هكذا أيضاً ارتفعنا نحن بهذا المثال الفريد لانتسابنا إليه حسب الجسد... ومن الواضح أنه لم يختار أن يكون في حالة عبد ليكتسب من وراء ذلك شيئاً لنفسه، وإنما ليعطي نفسه لنا فيغنينا بفقره ويرفعنا إلى كماله الفائق ويجعلنا أبناء الله بالإيمان عندما نشابهه في كل شيء].

(القديس كيرلس الكبير: في شرح إنجيل يوحنا ١ : ١٤ .P.G. 73 p. 161).

[لقد تجرب الرب من الشيطان أربعين يوماً وما استطاع الشيطان أن يسيء إليه، لقد اقترب منه فيما يخص الجسد فقط أما في أعماقه فكان هو الإله، هكذا

والمسيحيون بينما يتجربون الآن خارجاً، فهم في عمقهم يكونون مملوئين بالله ولا يستطيع الشيطان أن يؤذيهم بشيء. ولكن لا يستطيع أحد أن يبلغ هذا القياس إلا الذين بلغوا إلى محبة المسيح حباً كاملاً ووصلوا إلى الإمتلاء بالله. أما الذي لم يبلغ إلى هذا القياس فإن حربه تكون لا تزال مستعرة داخله، تارة يرتاح بالصلاة وتارة يقع في شدة وحرب].

(القديس مقاريوس الكبير: عظة ٢٦ : ١٥).

***

«مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد» (مت ٤ : ١٠).

لقد أنهى المسيح على كل حوار فلا راحة حقيقية ولا وجود للذات البشرية إلا في السجود لله، وغاية الإنسان يستحيل أن تتحقق إلا من خلال العبادة.

— ١٠ —

«إذهب ياشيطان» (مت ٤ : ١٠).

[تجرب كإنسان، وطرد الشيطان كالإله].

(البابا تيموثاوس الثاني بطريرك الإسكندرية: رسالة أثناء نفيه في خرسون).

***

والآن وبعد أن حل المسيح رباطات الخطيئة، التي ربطت بها طبيعتنا، بصومه وجوعه وتجاربه، لم يتبقَ إلا أن يُبطل الخطيئة بموته!!

وميعادنا عند الجلجثة.

(مارس ١٩٦٨)

التجربة على الجبل

عظة أُلقيت على إنجيل قداس الأحد الثاني من الصوم الكبير
بكنيسة القديس أنبا مقار ببرية شيهيت

تعلمون يا أحبائي أننا في موسم كنسي من أهم المواسم في حياة الكنيسة وحياة أبنائها، جماعة وأفراداً.

سمعتم في إنجيل هذا الصباح أن الرب يسوع كان في البرية يجرَّب من إبليس أربعين يوماً وأربعين ليلة، كما جاء في إنجيل لوقا.

ما هذا الذي عمله الرب؟ نحن نعلم جيداً كيف اعتمد المسيح ولماذا اعتمد في الأُردن؟ نعلم كيف قدَّم الرب نفسه على الصليب، ولماذا صُلب؟ ونعلم أيضاً كيف قام الرب من بين الأموات في اليوم الثالث، ولماذا؟

ولكن أمامنا عمل من أعمال المسيح تكرمه الكنيسة جداً، إذ على مدى خمسة وخمسين يوماً تركِّز الكنيسة ألحانها حول هذا الذي عمله الرب بعد أن اعتمد إذ خرج إلى البرية وحده صائماً أربعين يوماً وأربعين ليلة.

ماذا عمل الرب في هذه المدة؛ بل ماذا عمل بالنسبة لنا؟

إن العمل الذي عمله الرب في البرية يُعتبر بالنسبة للكنيسة عملاً جماعياً، وبالنسبة لك ولي يُعتبر عملاً فردياً. فاليوم في هذا الصباح نتأمل معاً بهدوء فيما استفادته الكنيسة من عمل المسيح وما يمكن أن أستفيده أنا وأنت في حياتنا مع الرب.

أنتم تقرأون في العهد القديم أن شعب إسرائيل خرج من مصر. ومصر قديماً ترمز إلى مكان الشر، وفرعون إلى إبليس. فكيف هرب شعب إسرائيل الذي هو شعب الله قديماً، من مصر الشر ومن فرعون المجرِّب، ثم عبر البحر الأحمر ثم وصل إلى سيناء.

عاش شعب إسرائيل في سيناء ٤٠ سنة تائهاً، يريد أن يصل من مصر إلى فلسطين، الأمر الذي كان لا يستغرق إلا أسبوعاً واحداً، فإذا بهم سائرون بل تائهون ٤٠ سنة.

هناك مطابقة عجيبة جداً، إذا نظرنا لعمل الرب الجماعي في الصوم. فشعب إسرائيل عبر البحر الأحمر وانطلق إلى البرية مباشرة، والرب انطلق — بعد أن اعتمد في الأُردن — إلى البرية.

ما معنى أن الرب نزل الأُردن واعتمد؟

أنتم تذكرون كلام الرسول بولس أن شعب الله قديماً «اعتمد لموسى في البحر الأحمر» (١كو١٠: ٢). العبور في البحر أو النزول إلى البحر في العهد القديم هو تعبير عن المعمودية، لذلك قال الرسول بولس أن الشعب اعتمد في البحر الأحمر وخرج منتصراً من الحرب مع فرعون.

أما فرعون فحاول العبور فغرق، ومات — وهذا تعبير عن الشيطان الذي نتخلص منه في المعمودية. فالشعب تخلَّص من سلطان فرعون القاسي تعبيراً عن خلاص الكنيسة من قهر الشيطان.

الرب تم لنا هذا في الأُردن، نزل إلى الأُردن والبشرية كلها فيه، وأهم مَنْ في البشرية هو أنت وكل مَنْ يسمعني، الكل دخل في المسيح حينما اعتمد في الأُردن. «**كلنا اعتمدنا معه**»، الكنيسة كلها اعتمدت في الأُردن. وكان اعتمادها معناه أنها قهرت الشيطان الذي ظهر انغلابه بوضوح وبصورة مادية ممثلة بفرعون، في عبور شعب إسرائيل للبحر الأحمر.

إذاً، الكنيسة كلها بعناية الرب انتصرت، في عماد المسيح، على الشيطان: «أما

يسوع فرجع من الأُردن ممتلئاً من الروح القدس» (لو٤: ١)، أي روح النصرة والغلبة، ويا للعجب، أنه بعد هذه النصرة والغلبة التي استُعلنت كاملة في المعمودية ذهب إلى البرية. فهو يذكِّرنا بخروج شعب إسرائيل من بعد عبور البحر الأحمر وانطلاقه إلى البرية ليجرَّب أيضاً.

الرب يُجرَّب أيضاً كما جُرِّب شعب إسرائيل ٤٠ سنة. ولكن كفى على المسيح أربعين يوماً، إذ اختزل الأربعين سنة، فالأربعون يوماً تمثِّل الأربعين سنة تماماً. والتجارب كما هي...

التجربة الأُولى:

تتعجبون عندما تتأملون معي أول تجربة دهمت الشعب: تجربة الجوع أي ثورة شهوة البطن. بينما كانت الحجارة تملأ الجبل، والحجارة مستديرة كاستدارة الخبز، كانوا ينظرون إليها وهم جائعون ويتشاجرون مع موسى قائلين: أخرجتنا إلى البرية لنموت، لا يوجد خبز، وتذمر الشعب الجائع.

هذه تجربة تداهم دائماً الطبيعة البشرية وقت الصوم ووقت العبادة والاعتكاف عن شهوة الجسد، إذ تثور شهوة الأكل. أو كما يسميها الرهبان شهوة «البطن سيدة الأوجاع». لأن أول تجربة تأتي على الإنسان دائماً هي عن طريق البطن.

أتى الشيطان إلى السيد الرب مقترحاً أن يجعل الحجارة التي أمامه خبزاً — تماماً مثل ما فعل مع شعب إسرائيل.

وكما ذهب الشعب إلى موسى يطلب الأكل فأنزل لهم الرب المنَّ من السماء، هكذا هنا أيضاً جاء الشيطان إلى المسيح، ولكن المسيح هو المنُّ، وهو الخبز السماوي. إذاً فما أسهل أن يحوِّل لنفسه هذه الحجارة إلى خبز!! أليس هو رب المعجزات؟

والآن، انظروا رد المسيح على الشيطان:

+ «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل **كلمة** تخرج من فم الله» (مت٤: ٤).

والمسيح عندما يقول: «بكل كلمة تخرج من فم الله»، فهو يشير إلى أساس الحياة، إلى نفسه الكلمة الذاتي الذي خرج من عند الله وهو في الله قائم، لذلك هو بالتالي خبز الحياة النازل من السماء، وهو إشارة من المسيح إلى المضادة العظمى في تجسده، فالخبز الحي كل مَنْ يأكله لا يجوع بل ولا يموت.

جاع، والكلمة الخالق المحيي الذي خرج من عند الله احتاج إلى خبزة، هنا التبس على الشيطان جوع المسيح، فما صنعه المسيح في نفسه تنازلاً ظنه الشيطان إخفاقاً، فالذي تنازل إلى جوعنا بجسده قدَّم جسده ليكون مصدر شبع أبدي لحياتنا. لأن الذي جاع هو هو كلمة الحياة ذاتها الذي يُشبع كل الجياع ببره ليعيشوا إلى الأبد.

المسيح يلفت أنظارنا في هذه التجربة إلى أن جوع الجسد لا يميت الإنسان بعد؛ بل الجوع إلى كلمة الله، والذي يشبع من كلمة الله لا يموت ولا يجوع جوع الموت أبداً.

إن تجربة الجوع التي داهمت شعب إسرائيل فتذمَّروا على الله في البرية، تقبَّلها المسيح في نفسه على جبل التجربة عن العالم كله، فأصبح المسيح قادراً على أن يُشبع العالم كله بجوعه، فصوم المسيح الذي انتهى إلى جوعه صار مصدر غلبة ونصرة وقوة لكل إنسان على جسده وعلى شهوته.

هكذا، فقد انفتح باب الصوم متسعاً لكل إنسان. لأننا من المسيح كلمة الله الحي والمحيي نأخذ القوة، لكي نغلب لا شهوة البطن وشهوة الطعام فحسب؛ بل نغلب الشيطان مصدر كل تململ وتذمُّر على كلمة الله. أربعون يوماً وأربعون ليلة لم يأكل فيها المسيح ولم يشرب. ولمَنْ صام المسيح إلاَّ عني وعنك وبي وبك، ولمَنْ انتصر المسيح على شهوة الأكل وغريزة الجوع إلاَّ لنا لكي نتبع خطواته، عالماً أن بهذا الصوم وبهذه الغلبة على الجوع وعلى الخوف ووهم المرض المؤدي إلى الموت، يفتح لنا المسيح سر الاعتماد على كلمة الله باعتبارها العامل الأقوى والأضمن لقيام الحياة: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان؛ بل بكل كلمة تخرج من فم الله» (مت ٤: ٤).

الكنيسة باتباعها خطوات الرب وتقديسها لهذا الصوم كتقليد حي ومحيي أخذت هذه القوة وسلَّمتها لنا في الأربعين المقدسة.

هذه هي التجربة الأُولى التي غلب فيها الرب رافعاً معيار «الكلمة» كمصدر لنوال سر قوة الحياة بالصوم على المستوى الجماعي وعلى المستوى الفردي أيضاً، ليُعطي الكنيسة وصية صوم ــ يقوم على سر كلمة الله ــ تحمل وعد الغلبة قبل أن يبدأه الإنسان.

كثيرون يدخلون الصوم خائفين على صحتهم، واجفين مرتعبين من تهديد المرض وهم لا يدرون أن هذه هي أوهام العدو نفسها التي صد بها شعب إسرائيل عن أن ينتظروا خلاص الرب بلا تذمر، وهذه المخاوف هي بعينها التي طرحها الشيطان أمام المسيح في شدة جوعه ــ لقد فات على هؤلاء قول الرب أن «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان؛ بل بكل كلمة تخرج من فم الله»، فصوم تؤازره كلمة الإنجيل مع إلقاء الرجاء بالتمام على النعمة قادر أن يعبر بنا صوم الأربعين المقدسة لا دون خوف وحسب؛ بل ويُشبعنا من دسم السماء، ويُلذذنا بخيرات الحياة الأبدية.

فكلمة الإنجيل بحد ذاتها مصدر شبع وارتواء، والكلمة يُعطَش إليها ويُجاع ــ كما يقول في سفر يشوع بن سيراخ: «مَنْ أكلني عاد إليَّ جائعاً. ومَنْ شربني عاد ظامئاً» (يشوع بن سيراخ ٢٤: ٢٩).

هنا ــ يا أحبائي ــ تقدِّم لنا الكنيسة تجربة الرب في الأربعين المقدسة لتكون لنا مصدر قوة وحياة أبدية على المستوى الجماعي والمستوى الفردي. التجربة التي سقط فيها شعب إسرائيل: «ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع، فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكي تميتا كل هذا الجمهور بالجوع» (خر١٦: ٣)، هذه التجربة هي أمامنا الآن مرة أخرى لاختبار مدى طاعتنا في المسير وراء الرب معتمدين على مواعيده.

ويقيناً لو أن شعب إسرائيل لم يتذمَّر واستمر سائراً وراء عمود الغمام بالنهار وعمود النور بالليل بدون أكل أو شرب لعاش ومجَّد الله وبارك العليّ! واختُزلت رحلته واستُبدل التيه له بالتدليل، والتأديب بالحب.

ولكن ــ كما يقول بولس الرسول ــ «حيث جرَّبني آباؤكم. اختبروني وأبصروا أعمالي أربعين سنة» (عب ٣: ٩)، وللأسف سقطت جثثهم كلهم في القفر ــ كل الجيل الذي خرج من أرض مصر ــ واحدٌ وراء واحدٍ، ٦٠٠ ألف جثة سقطت بسبب عدم الإيمان و بسبب التذمر وعدم طاعة كلمة الله. وعمل الشعب عليها مناحة وراء مناحة ودفنوها في الرمال وعبروا. وأخيراً وصل موسى ورأى أرض الميعاد من بعيد ومات هو الآخر.

ولماذا ماتوا؟ يقول بولس الرسول: «بسبب عدم الإيمان»، جرَّبوا الرب في البرية فماتوا (عب ٣: ١٩).

التجربة الثانية:

بعد أن انهزم الشيطان أمام المسيح في تجربة الصوم، كان من الطبيعي أن يوعز إليه بإظهار عظمته وألوهيته.

كان خارج الهيكل مبنى عالٍ يطل على وادي قدرون وارتفاعه حوالي ٢٠٠-٣٠٠ متراً، فأوعز الشيطان للمسيح أن يُظهر عظمته، وهو الذي صام أربعين يوماً وأربعين ليلة وقد صار بشبه الملائكة، أن يلقي بنفسه من على جناح الهيكل، والملائكة تحمله والناس يهللون ويعظِّمون ــ هكذا يصوِّر الشيطان للناس دائماً بعد نصرتهم في تجربة أنهم صاروا أعظم من البشر ــ وهذه التجربة في الحقيقة ليست مختلقة، فالشيطان جاء بنص كتابي يحقق مناسبتها إنه مكتوب في المزامير: «يوصي ملائكته بك لكي يحفظوك في كل طرقك، على الأيدي يحملونك لئلا تصدم بحجر رجلك» (مز ٩١: ١١و١٢).

ولكن مهما اعتمد الشيطان في صياغته للتجربة على أقوال الكتاب المقدس، فهو كاذب ومضلِّل، فآية سفر المزامير التي طرحها الشيطان تقابلها آية سفر التثنية، فقد قال له الرب ما ورد في سفر التثنية: «لا تجرِّب الرب إلهك» (تث ٦: ١٦).

والآن لو عدنا إلى الظروف التي عبر فيها إسرائيل وهو في البرية نجد نفس

التجربة يقدمها الشيطان للشعب بعد أن سقط في تجربة الجوع. فإن شعب إسرائيل حينما استبطأ موسى وهو يكلِّم الله ٤٠ يوماً، نسي كل المواعيد السابقة و بدأ يشك في كل ما قاله موسى، فجمعوا الحلي الذهبية وسبكوها ونادوا على هرون ليعمل لهم عجلاً يعبدونه و يهللون له.

يا للتجربة المُرَّة! إن كانت التجربة الأُولى، وهي مجرد احتمال الجوع اعتماداً على وعد الله قد سقط فيها الشعب، فالتجربة الثانية جاءت حتماً منصبَّة على الشك في الله نفسه. ولكن تجربة شعب إسرائيل هنا ليست كتجربة المسيح، فشعب إسرائيل سقط في تجربة الجوع فكانت التجربة الثانية سقوطاً من عبادة الله نفسه. أما في تجربة المسيح، فالمسيح انتصر على تجربة الجوع، فتقدم المجرِّب والحالة هكذا لكي يجرَّ به بالمجد الباطل بشبه الله.

وهكذا، فإن التجربة الثانية التي تداهم الإنسان الذي ينجح في ما يقدمه من صوم ونسك هي تجربة الألوهة أو اختلاس كرامة الله ومجده. التجربة الأُولى تأتي دائماً عن طريق الجسد عبر البطن، وهي تجربة يقع فيها الكثيرون. أما التجربة الثانية لمَنْ غلبوا شهوة البطن والجسد، فهي تأتي صعبة جداً لأنها تجربة الذين تنسَّكوا وسهروا وصاموا وحزموا بطونهم ونجحوا!! فهي تجربة الأشداء المقتدرين العمالقة الذين يدمنون الكنائس ويطيلون الصلاة، ويدققون في الصوم وفي أصغر الفرائض، فيأتي الشيطان ويمتدحهم جداً ويوعز إلى الكثيرين ليمدحوهم ويستحسنوا منهجهم ويكبِّروا أسماءهم، حتى إذا قبلوا ذلك وارتاحوا إليه يلقي في قلبهم المطالبة بالكرامة والظهور بالقداسة واصطناع مظاهر الألوهة.

التجربة الثانية للذين سقطوا في الأُولى تأتي مُرَّة كالتي أتت على شعب إسرائيل، أي تجربة العجل الذهبي، فبعد تجربة ملء البطن تأتي تجربة السجود للأصنام، أي إنكار حق الله ومجد الكمال الروحي.

أما التجربة الثانية للذين غلبوا في التجربة الأُولى، فتأتي كما قلنا على نفس

المستوى ولكن ليس عن طريق السجود للأصنام؛ بل الظهور بمظهر الصنم نفسه. ومطالبة الآخرين بالسجود لهم للتكريم على مستوى النزول من أعلى جناح الهيكل بمجد عظيم بشبه الله، الأمر الذي اعتبره المسيح بالنسبة له وهو الإله، أنها تجربة موجَّهة لله: «لا تجرِّب الرب إلهك» !!

مرة في أحد الأديرة أتى رجل فقير بملابس بالية وطرق على الباب، فرد عليه البواب سائلاً: مَنْ بالباب؟ فردَّ: أنا إنسان فقير وأريد رئيس الدير في أمر مهم. فقال له: حاضر — وكان بواباً مؤدباً — وأسرع للرئيس مخبراً إياه، فقال له الرئيس: ابعد من هنا يا أخي... ورفض أن يدخله لأنه كان يجالس أناساً عظماء. وانتظر الفقير ساعات وألحَّ مرة ومرات والبواب يروح ويجيء حائراً في أمر ذلك المحتاج... وأخيراً صرفه البواب آسفاً. فقال له الرجل: قُلْ له سأرسل لك ضيوفاً من مشارق الأرض ومغاربها، أما ملكوتي فلن تذوقه... ولم يجده البواب لأنه كان هو رب المجد أتى ليمتحن ذلك الرئيس.

آه من الكرامة المسروقة التي تُنسينا حقيقة أنفسنا...

آه من جناح الهيكل الذي نصعد عليه بمجد عظيم، فإذا بعيوبنا وفضائحنا تظهر على مستوى الخدمة، في حرمان الفقير والمسكين والبائس والعريان.

آه، يا أحبائي، احذروا من طلب الكرامة، فالشيطان يرمي شباكه على كل المستويات ولا يكلّ أبداً، وهو يفرح بسقوط الأقوياء!!

يا أحبائي، تجربة مُرَّة أن نجرِّب الرب فنسلبه مجده، أن نأخذ كرامة المسيح ونضيفها لأنفسنا، هذه التجربة خطيرة ولها ميزان سماوي حسَّاس موضوع في قلب الأقوياء منا، وكل ميل ولو قليل جداً نحو سرقة كرامة المسيح، يتحرك الميزان بعنف شديد بشبه زلزال لأن عموداً عظيماً يميل ويكون على وشك السقوط، ولا يحس به إلاَّ ملائكة السماء.

أما الأمين فيما لله، فهو لا يشعر في نفسه أنه شيء؛ يسير بخشوع كثير في بيت الله

ولسان حاله يقول إني لست أهلاً أن أكون واعظاً لهذه الكنيسة، أنا أصغر من أن أكون راعياً أو معلماً لأولاد الله ولهذه الكنيسة المقدسة والشعب الحافظ الأمانة، كيف أقف وأعلِّم ومعلمنا واحد في السماء؟

كل مَنْ أتقن الفرائض والطقوس، كل مَنْ كانت كلمة الله في فمه، كل مَنْ اعتاد بيت الله، كل مَنْ أخذ موهبة إلقاء كلمة على فصل أو على جماعة، كل مَنْ أخذ مركز قيادة في الكنيسة؛ هو مجرَّب بتجربة جناح الهيكل.

علِّمنا يا رب سر المتكأ الأخير في الكنيسة. لقد وعظنا وعلَّمنا وحفظنا كثيراً، ولم نعثر بعد على المتكأ الأخير. ليس في الكنيسة كرسي مكتوب عليه «المتكأ الأخير». لأنه يمكن أن أذهب إلى آخر مكان في الكنيسة وأجلس عليه وأنا معتدٌّ بذاتي متكبر بمواهبي، لكي ينظرني الناس ويقولوا إني جالس في المتكأ الأخير لأُضيف الاتضاع خلسة إلى كبريائي.

«المتكأ الأخير»، هو ضمير حيٌّ يشعر في الأعماق بسر روحي طاغٍ أنه أقل من الباقين، دون أن يكون هذا الشعور باعثاً فيه على الحزن أو صغر النفس؛ بل برضى وشكر وفرح يفوق العقل.

هذا ما قاله القديس بولس الرسول الذي بالرغم من قوله عن نفسه: «اؤتمنت على إنجيل مجد الله المبارك»، إلاَّ أنه يصف نفسه: «المسيح يسوع جاء إلى العالم ليخلِّص الخطاة الذين أولهم أنا» (١تي١: ١١و١٥). مَنْ له ضمير المتكأ الأخير يجلس لا في المتكأ الأخير؛ بل في كل مكان دون أن يفقد شعوره بأن الله أولاً وقريبي ثانياً وآخر الكل أنا!! بضمير فيه يشعر المتكلم أنه أقل من السامع، والحافظ أقل من الذي لم يحفظ بعد، والمتعلم أقل من الذي لم يتعلم.

هذا هو الضمير الذي به نستطيع أن نغلب الشيطان الذي دخل معنا في معركة الكرامة وسرقة مجد الله.

التجربة الثالثة:

عجيبة أيضاً التجربة الثالثة في شكلها وعملها.

دخلها المسيح أيضاً من أجل الكنيسة ومن أجل كل فرد. تقدم الشيطان وعرض أمام المسيح العالم كله بكل ممالكه من فوق قمة الجبل لا بالمنظر المحسوس بل بالمنظر المعقول، أي برؤية خاطفة شاملة تشمل كل الزمان والمكان في لحظة، وقال له: هذا هو العالم، مملكتي الخاصة التي أسلمت في يدي، أعطيك إياها لو خررت وسجدت لي!!

عرض سخي من الشيطان، بمعنى أنه لا داعي للصليب والآلام والعار والمعاناة لكي يملك المسيح على العالم؛ بل يمكن أن يتنازل الشيطان عن كل العالم مقابل اعتراف المسيح به سيداً معبوداً!! هذا أوضح كشف لسيكولوجية الشيطان. فالشيطان يدرك تماماً أن معركته الفاصلة ليست مع الناس أو العالم؛ بل مع المسيح شخصياً، فهو مستعد أن يتخلى عن كل ممالك العالم وكل بني آدم جميعاً ليفوز بسيادته على المسيح باعتباره رئيس جند الله، رب الصباؤوت أي سيد كل القوات السمائية!!

فإذا علمنا أن الشيطان سقط من رتبته كرئيس ملائكة (بسبب عدم حفظه لحدود رتبته راغباً في الاستعلاء بسلطان مجده الممنوح له من الله، والذي سُحب منه كخادم متمرد)، لأدركنا في الحال محاولته الخادعة لاستعادة مركزه لا عن طريق الاتضاع؛ بل عن طريق الإمعان في الكبرياء «إن خررت وسجدت لي»، هنا يرده المسيح في الحال إلى سر سقوطه الذي أرداه أرضاً وعرَّاه من غطاء النور: «للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد» (مت٤: ١٠)، مشيراً من طرف خفي أن الوضع الذي يقترحه الشيطان معكوس، **«فللمسيح تجثو كل ركبة في السماء وعلى الأرض» (في٢: ١٠)، وقد دُفع له كل سلطان مما في السماء وعلى الأرض (مت٢٨: ١٨)**، أما العالم فسيُنتزع من الشيطان انتزاعاً حينما يفديه المسيح بدمه على الصليب.

إذاً، فالتجربة الثالثة التي وضعها الشيطان أمام المسيح، هي الخيار بين السجود للشيطان أو الصليب!! لاسترداد العالم لله بعد أن وقع في قبضة الشيطان: «لأن

العالم كله قد وُضع في الشرير» (١يو٥: ١٩).

التجربة الثالثة وقع فيها شعب إسرائيل مراراً وتكراراً حينما هادنوا وتزاوجوا من الشعوب الغريبة ليتوطد ملكهم، وخانوا الحق والبر والاستقامة ليستمتعوا بملكهم، وتعاهدوا مع الشيطان والعبادات المحرَّمة ليسترضوا القوى الشريرة فيستتب لهم الأمن المزعوم والراحة الكاذبة.

المسيح زكَّى الصليب وارتفع عليه كمغلوب، كمائت، كمطعون، كمَنْ حارب وهُزم في موقعة الجسد، وذُبح على الصليب ليفدي العالم من سلطان الشيطان أفضل من أن يملك بالراحة على عالم تحت سلطان الشيطان، فصار المسيح هو هو ملكوت الكنيسة ومجدها؛ بل وملكوت كل إنسان بما يفوق كل ملك العالم.

سألت واحداً تقياً: ما دام عندك مال، فلماذا لم تشترِ هذه الفيللا التي تسكن فيها؟ فقال لي: وضعت في نفسي أن لا أمتلك شبراً على أرض الشقاء، حتى أعيش حرًّا وأموت حرًّا من هذا العالم. لقد كنت فيما سبق أشتهي فعلاً أن أملك هذا وذاك، ولكن يوم أن ملَّكتُ المسيح في قلبي ماتت فيَّ شهوة المِلكية!!

مبارك الرب يسوع المسيح الذي غلب الشيطان في الموقعة الثالثة على جبل الدنيا العالي، جبل رؤى الملكيات، الجبل العقلاني الذي عليه سقط جبابرة العالم واقتنوا وماتوا ودفنوا في كفن قنيتهم! نحن لا نقتني مقتنيات ولكن المقتنيات هي التي تقتنينا، وعندما تسود علينا تذلُّنا كعبيد. كل مَنْ يشعر بأنه قد ملك المال صار في الحال عبداً للمال، و بقدر كثرة الأموال تكثر العبودية لأرقامها وأوهامها.

نشكرك يا ربنا يسوع المسيح لأنك بصليبك حررتنا من الدنيا ولم تجعلنا عبيداً لشيء أو لأحد، حررتنا وقلت لنا: «لا أعود أسميكم عبيداً؛ ... لكني قد سميتكم أحباء» (يو١٦: ١٥).

لقد كان المسيح ينظر إلى ما وراء معركة الصليب حينما قال: «إن حرركم

الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً» (يو٨: ٣٦). فالابن وحده هو الذي غلب العالم وملكياته وشهواته، غلبها وأعطى لكل إنسان هذه الغلبة فيه، لذلك يقول الرب: «هؤلاء ليسوا من العالم كما أني أنا لست من هذا العالم» (يو١٧: ١٦).

ما أعظم هذه التجربة التي دخلها المسيح مع الشيطان وانتصر فيها وحررنا إلى الأبد على مستوى الكنيسة وكل فرد فيها.

صلاة:

+ يا ربنا يسوع المسيح يا مَنْ عشت فقيراً وأنت ملك الملوك.
+ ويا مَنْ غلبت الشيطان في معركة الملكية ومعركة مجد هذا العالم، وأعطيتنا الفقر الاختياري لنعيش في غناك إلى الأبد: غنى لا يتزعزع.
+ أعطنا يا ابن الله أن نكون دائماً أبداً على مستوى هذه الموقعة الثالثة، ونعيش ونموت لك، أبناء ملكوت وأبناء نور، نسير في ملكيتك وفي ملكوتك، غير محتاجين وغير معوزين شيئاً من أعمال كرامتك.
+ باركنا يا رب ككنيسة وكأفراد، يا مَنْ غلبتَ لنا ككنيسة مجتمعة متحدة وغلبت لنا كأفراد ليكون لكل منا الفكر الذي فيك.
+ أعطِ سر نصرتك لكنيستك، ولنفرح بها حرّة قوية لا عيب فيها ولا غضن، ويفرح بك أولاد صليبك، الكلُّ غالبٌ معك ومنتصر في هذه المعارك الثلاث.

(يناير ١٩٨٠)



«أنا هو نور العالم»

(إنجيل يوحنا الأصحاح التاسع)

عظة أُلقيت على إنجيل قداس أحد التناصير

إنجيل قداس اليوم، إنجيل النور، إنجيل الأعمى الذي جعله المسيح يبصر.

وطقس الكنيسة يحدد أن هذا اليوم هو أيضاً أحد التناصير. إذ معروف أن **الكنيسة في العصور الأولى ربطت بين إنجيل الأعمى وطقس المعمودية ربطاً شديداً**. ويوجد في سراديب روما التي من القرن الثاني نقوش بالفريسكو لإنجيل الأعمى تحت عنوان المعمودية كشرح لعملها السري. كذلك يربط الآباء جميعاً بين إنجيل الأعمى وطقس المعمودية في عظاتهم، مثل القديس أمبروسيوس في المقالة الثالثة على الأسرار.

تذكرون أنه في يوم الجمعة الماضي كان موضوع إنجيل القداس الميلاد من فوق كضرورة حتمية **لرؤية الملكوت**، فالمسيح يؤكد لنيقوديموس ـ الذي كان يريد أن يعتمد على حذقه في معرفة الناموس كمعلم وكمن يرى الحق أو النور ـ أنه مخطىء ويجري وراء السراب، ثم صحّح له الوسيلة والطريق: «إن كان أحد **لا يولد من فوق** لا يقدر أن **يرى ملكوت الله**» (يو٣: ٣). والرؤية هنا كما قلنا هي رؤية القلب أو رؤية المعرفة. أي أن **الميلاد من فوق** أو «المعمودية» هي الطريق الوحيد لرؤية ومعرفة الملكوت.

والمسيح في إنجيل هذا اليوم، وهو يعطي نور البصيرة للأعمى، يكمّل ويدعّم ما قاله لنيقوديموس، إنما بواسطة المعجزة التي جعلها آية لصدق دعوته أنه هو «النور» وهو

«الحياة» ، فهو يجعل الأعمى يبصر وكأنه يقول لنا إن الإنسان بالإيمان بالمسيح قد انفتح أمامه مجال تجديد خلقته بلا حدود . والدعم هنا في تفتيح عين الأعمى يتجه إلى ناحيتين :

الأولى : أن المسيح نور بالحق ، فهو قادر أن يقهر الظلمة بصورة مادية على مستوى خلقة أعين جديدة تنقل الإنسان من ظلمة العمى إلى نور النظر ، وإشارة وتأكيداً للوضع الروحي : «النور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه» (يو١ : ٥) . النور هنا ينتقل من المسيح إلى الإنسان بالفعل . و يتحقق بصورة واقعية وملموسة أن المسيح هو نور العالم وكقوة قاهرة للظلام !!

والثانية : أنه قادر أن يجعل الذي كان بلا عين أصلاً منذ ولادته الأولى يبصر . ومعروف أن كل نقص في الخلقة للمولود كان يعتبره اليهود عقاباً سمائياً بسبب الخطيئة ، لذلك كان ينبغي أن تخلو الذبيحة من أي عيب في العيون . وهنا يظهر المسيح أنه قادر أن يعطي حواساً جديدة للإنسان ، وإن كانت هنا على المستوى المادي فهي إشارة مبدعة وآية عملية على قدرته على إعطاء حواس جديدة على المستوى الروحي . كما تحمل ضمناً و بصورة حاسمة قدرة المسيح على تصحيح خلقة الإنسان كإشارة عميقة إلى قدرته على خلقة الإنسان كلياً خلقة جديدة تنقله من حالة النقص إلى حالة الكمال .

العلاقة بين المعمودية ورؤية الملكوت :

ولكي يشرح لنا المسيح بصورة مادية العلاقة الأساسية القائمة بين المعمودية و بين القدرة على رؤية الملكوت ، أعطى الأعمى أمراً (كلمة) أن «يغتسل بالماء» لكي يبصر . فالاغتسال بالماء هنا كطاعة لكلمة المسيح الروحية أو الإلهية إشارة سرية عميقة لفاعلية المعمودية بالماء باسم المسيح أو بقوة الكلمة الحية . ومعنى هذا أن الماء الذي يعطي ميلاداً بالروح من فوق في المعمودية هو أيضاً يُعطي بالروح بكلمة المسيح بصيرة لرؤية النور .

ولكي يكشف الإنجيل عن «السر» المحيط بالماء الذي فتح عيني الأعمى ، حتى لا

يُظن أنه مجرد ماء و بوضعه الظاهري ، حدَّد له المسيح بركة سلوام بالذات ، ثم أعطى المسيح بنفسه تفسيراً لاسم هذه البركة سلوام قائلاً : (**الذي تفسيره «مُرسَل»** ἀπεσταλμένος) . والإشارة هنا تتجه نحو المسيح نفسه مباشرة ، لأنه هو المرسَل الحقيقي الذي قد أرسله الآب بحسب تعبير المسيح نفسه ، أي أن الاغتسال في بركة سلوام يستمد سر فاعليته من صميم رسالة المسيح .

كذلك معروف أنه في عيد المظال هذا الذي صنع فيه المسيح معجزة الأعمى ، كان يُعمل فيه طقس تذكار الصخرة — «والصخرة كانت المسيح» (١ كو١٠ : ٤) — حيث كان رئيس الكهنة يملأ بنفسه جرة فضية — عوض الصخرة في برية سيناء — من ماء سلوام ويصبُّها على المذبح .

أي أن ماء سلوام الذي فتح عيني الأعمى كان هو رمز المسيح نفسه «المرسَل» لهذا الغرض عينه أي لإعطاء الحياة والنور للناس . وهذه إشارة غاية في العمق والسرية ، ترفع من مفهوم الماء في المعمودية إلى معنى طبيعة الكلمة في إعطاء الحياة والاستنارة وحواس جديدة للإنسان المولود من فوق ، تؤهله لرؤية الملكوت وقبول الحياة الأبدية .

معجزة المولود الأعمى : شرح لعمل المسيح في المعمودية :

إذاً ، فإنجيل قداس اليوم يشرح لنا قمة عمل المسيح في المعمودية بصفته النور والحياة في ماء سلوام . وهذا تطبيق عملي رائع لما قاله القديس يوحنا في بدء إنجيله : **«فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس»** (يو١ : ٤) !! فماء المعمودية وإن كان لا يزيد في شكله وطبيعته الظاهرية عن ماء بركة سلوام ، إلا أنه في جوهره — بسبب كلمة المسيح — هو حياة ونور لخليقة جديدة .

ماء المعمودية هو لنا جميعاً ماء سلوام الروحية ، أو بحسب تعبير القديس يوحنا ذهبي الفم [1] : **«ماء المرسَل»** ، ماء المسيح ، الماء الحقيقي الحي : **«الماء الذي أنا**

(١) على إنجيل يوحنا — العظة ٩ .

أعطيه ... ينبع إلى حياة أبدية» (يو٤: ١٤)، الذي منه أُعطي للإنسان أن يُخلق جديداً بالحق !! هنا محاولة قوية وعجيبة من الإنجيل ليشرح لنا سِرّ ماء المعمودية بطبيعته الجديدة، ماء بركة سلوام الجديدة، الذي كل من يغتسل فيه ينال بطاعة الكلمة وآسم المسيح الحياة الجديدة والبصيرة السمائية لرؤية النور الحقيقي . ولهذا اعتُبرت المعمودية في طقس الكنيسة الأرثوذكسية موهبة الحياة الجديدة وموهبة الاستنارة معاً بآن واحد !! حيث يعبّر عنها في الطقس بحمل المعمَّد لشمعة في يده وهو خارج من جرن المعمودية و بثيابه البيضاء ــ المشروح معناها في سفر الرؤيا أنها تعبير عن نصرة الحياة الجديدة المبيضة في دم الخروف ــ تعبيراً عن الحياة الجديدة للمعمَّد؛ وأما الشمعة فلأنه كان أعمى والآن يبصر؛ حيث يصبح عليه في الحال أن «يخبّر بفضل الذي دعاه من الظلمة إلى نوره العجيب» (١بط ٢: ٩)، والظلمة هي دائماً حياة الخطيئة، النور هو حياة البر والقداسة والحق في المسيح.

المسيح هو حياة ونور الخليقة الجديدة:

وإنجيل الأعمى يشير إلى المسيح كمصدر حياة ونور: حياة بسبب العين الجديدة كلية التي خلقها له المسيح، والنور لأنه أبصر فرأى العالم حوله. ويمتد الإنجيل ليشرح لنا كيف انتقل هذا الأعمى ــ مرة أخرى و بنقلةٍ روحيةٍ أعلى ــ من ظلمة المعرفة إلى نور الحق، حتى إنه شهد للمسيح دون أن يراه، بل وشهد له بقوة حُجَّة أذهلت الفريسيين.

وينبغي أن نلتفت جداً أن الأعمى حينما اغتسل في بركة سلوام وعاد بصيراً، كان المسيح قد ترك المكان، فلم يجده الأعمى، و بالتالي لم يره بعينيه أو يتعرف عليه!!! (يو٩: ١١و١٢). و بالرغم من ذلك دافع عن المسيح معتبراً إياه نبياً، وشهد له بلا أدنى خوف أو حذر من تهديد الفريسيين بطرده من المجمع إزاء إصراره على الشهادة للمسيح، و بالفعل طردوه، فقبل هو هذه العقوبة المرعبة التي تُفقده كل الحقوق التي للمواطن الإسرائيلي دون أن يندم أو يهتم بمصيره الشاق.

لكن كان إزاء هذه الشجاعة المخلصة والأمانة لفضل المسيح، باعتباره مجرد إنسان

نبي، والتي كلفته الطرد من رعوية إسرائيل؛ كان أن ظهر له المسيح وأعلن له حقيقة نفسه أنه آبن الله لكي ينال بالإيمان به الخلاص، فآمن وخرَّ ساجداً له. فتمَّ فيه قول المسيح: «الله طالب هؤلاء الساجدين له بالروح والحق» (يو٤: ٢٣)، فصار الأعمى بالضرورة من أبناء الله: «أما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنون باسمه، الذين ولدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله» (يو١: ١٢و١٣).

وهكذا نجد أن إنجيل الأعمى هو في الحقيقة شرح عملي لفاعلية المعمودية حينما يساندها الإيمان: «من آمن واعتمد خلص» (مر١٦: ١٦)، لأن الانتقال من الظلمة إلى النور هو الصفة السائدة لمفهوم عمل المعمودية:

+ «منقذاً إياك من الشعب والأمم الذين أنا الآن **أرسلك، إليهم لتفتح عيونهم** كي يرجعوا من **ظلمات إلى نور** ومن سلطان **الشيطان إلى الله**» (أع٢٦: ١٧و١٨).
+ «لأنكم كنتم قبلاً **ظلمة** وأما الآن **فنور في الرب**. اسلكوا **كأولاد نور**» (أف ٥: ٨).
+ «لكي تخبروا بفضل الذي **دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب**» (١بط ٢: ٩).

هذه الآيات كلها تخص فعل المعمودية المباشر وصفة المعمَّدين.

*

والقديس يوحنا ذهبي الفم يعلق على طرده من الهيكل هكذا:

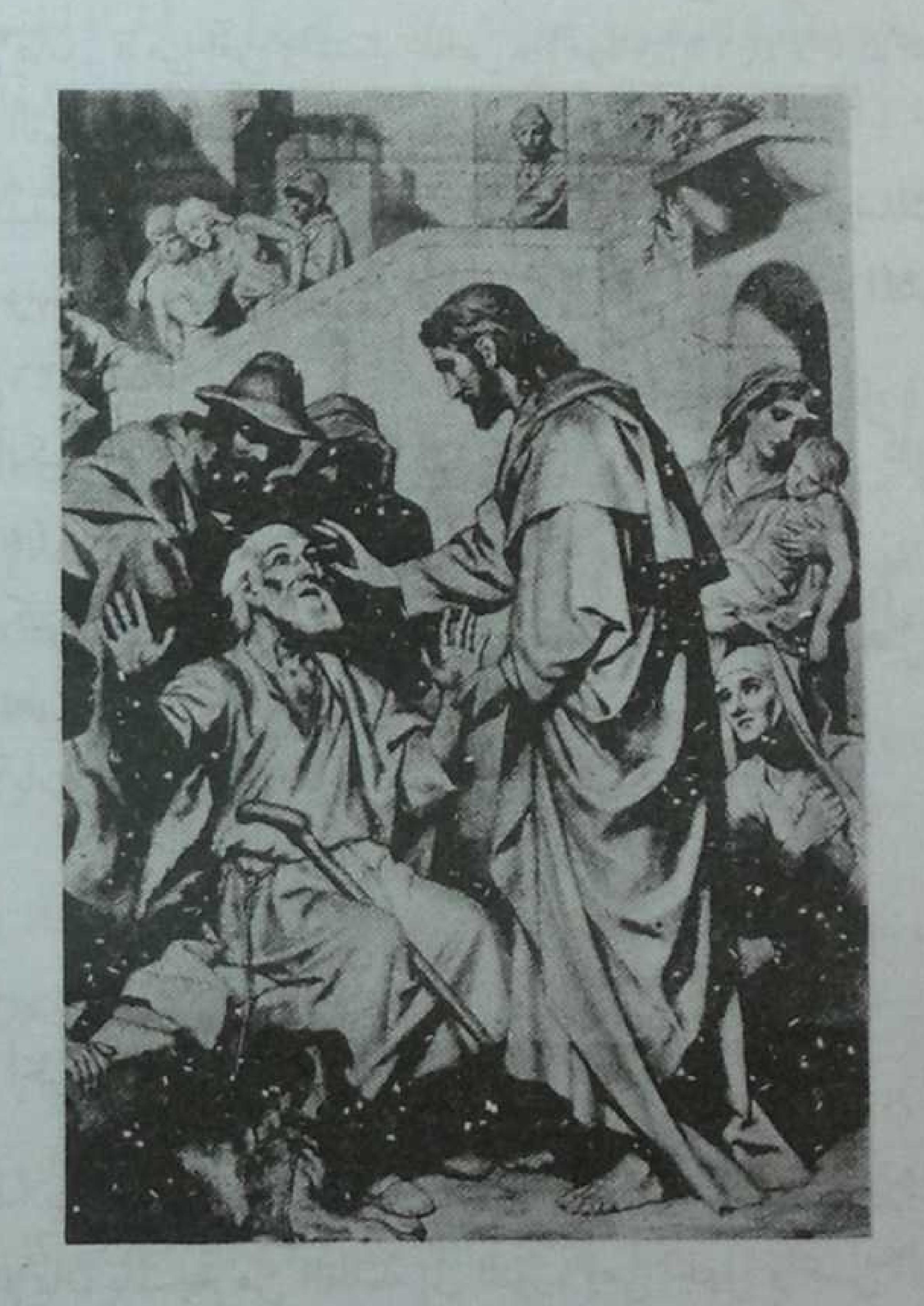
[أخرجوه خارج الهيكل، فقَبِله رب الهيكل].

وهكذا يعطينا الأعمى مثلاً رائعاً لإنسان فاقد البصر والبصيرة، استطاع أن يعبر بواسطة الإيمان بالمسيح من الظلمة إلى النور، ومن الجهل والعمى الروحي إلى الإيمان والثقة والعبادة والسجود لله الحي، ومن العوز إلى الملء.

وهكذا يعطي الإنجيل إشارة إلى أن كل مرض وكل عمى وكل نقص في الخلقة يمكن بالإيمان أن يتحول إلى حياة أبدية وإلى تمجيد الله.

+ «هذا المرض ليس للموت بل لأجل مجد الله وليتمجد ابن الله به» (يو١١: ٤).
+ «لا هذا أخطأ ولا أبواه ولكن لتظهر أعمال الله فيه» (يو٩: ٣)

(١٩٨٠)



عندما يختفي المسيح

«تكلم يسوع بهذا ثم مضى واختفى عنهم»

(يو١٢: ٣٦)[1]

هذا الفصل يختم به القديس يوحنا كل تعاليم الرب وكل كلماته وآياته عند الذين رفضوه، أما الإجراء الذي اتخذه الرب ضدهم فهو أنه «اختفى عنهم». هنا اختفاء المسيح لم يكن بسبب تهديدهم برجمه، بل هو اختفاء من نوع آخر.

في موقف سابق نقرأ تصرفاً مماثلاً: «قال لهم يسوع: ,, الحق الحق أقول لكم قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن،،. فرفعوا حجارة ليرجموه، أما يسوع **فاختفى** وخرج من الهيكل مجتازاً في وسطهم ومضى هكذا» (يو٨: ٥٨و٥٩).

يوجد فارق كبير بين اختفائه الأول، واختفائه الثاني:

الاختفاء الأول: كان في الهيكل وخرج منه ولكنه عاد إليه وتراءى لهم، واستمر يعلّمهم لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد. فالاختفاء هنا هو لتلافي نقص معرفتهم ونقص استعلانه انتظاراً لمزيد من فرصة، أي لتلافي نقص قدرتهم في التعرف عليه وترقب ظروف أخرى لاستكمال استعلانه، وهو يشبه تماماً رفضنا للمسيح عندما يواجهنا **بحقيقة أنفسنا**، أو رفضنا له عندما يطالبنا بالتخلي عن مسرات وأعمال وأفكار ومكاسب محرمة لا تليق... هنا يبدو المسيح غير مقبول، غير محبوب، غير مستساغ، وأخيراً مرفوضاً منا، هذا الرفض قد يزداد عنفه بزيادة إلحاح المسيح حتى يصل إلى درجة الإنكار وإلى الرجم. هنا يكون تصرف المسيح لطيفاً ورقيقاً للغاية، فهو

---

(١) عظة على إنجيل قداس الثلاثاء من الأسبوع السابع من الصوم الكبير وهو (يوحنا ١٢: ٣٦-٤٣).

ينسحب من دائرة حياتنا دون أن نلحظه، ولكنه يعود إلينا يلح في كشف أنفسنا، أو يلح في مطالبتنا بالتخلي عن الحرام الذي في وسطنا.

وهكذا يختفي المسيح ثم يعود، لأنه يرى أنه لا تزال أمامنا فرصة للتوبة ونحن ناقصون عن مستوى إدراكها. هنا المسيح يعرض نفسه أكثر، يوضح حبه أكثر، يتودد إلينا **بكل وسيلة ممكنة** بنداء القلب الداخلي و بعلامات خارجية كثيرة جداً...

الاختفاء الثاني: الآن قد أتت الساعة، كما سبق منذ قليل وأعلن، إذ لما أراد اليونانيون أن يروه وطلبوا ذلك من فيلبس: «أتى فيلبس وقال لأندراوس، ثم قال أندراوس وفيلبس ليسوع. وأما يسوع فأجابهما قائلاً: قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان» (يو١٢: ٢٢—٢٣).

إذاً، فواضح أنه ليس اختفاءً لإعطاء مزيد من الفرصة، ولا هو اختفاء مؤقت سيتبعه عودة للتعليم مرة أخرى، أو للتوبيخ، أو لمزيد من آية أو معجزة، لأن الساعة قد أتت، لذلك فهو اختفاء لا ظهور بعده بالنسبة للذين رفضوه.

هذا في الواقع خطير للغاية، بل ومرعبٌ أيضاً للغاية، لأنه اختفاء ليس بعده رجاء الظهور. ليس هو اختفاءً بأن يجوز في وسطهم في ساعة الغضب ثم يعود إليهم يلاطفهم ويستزيد في تعليمهم وتوبيخهم، و بالتالي يعطيهم مزيداً من استعلان نفسه، بل هو اختفاء ذاتي من كل دائرة حياة الرافضين. هنا المسيح أخفى حقيقته عمداً و بإصرار عن رافضيه وإلى الأبد!!

الاختفاء هنا هو إخفاء نوره عن بصيرة الإنسان المعاند والمكابر، كما حذرهم سابقاً مراراً: «**النور معكم** زماناً قليلاً بعد، فسيروا ما دام لكم النور لئلا **يدرككم الظلام**، والذي يسير في الظلام لا يعلم إلى أين يذهب، ما دام لكم النور آمنوا بالنور لتصيروا أبناء النور» (يو١٢: ٣٥و٣٦). «أنا هو نور العالم، من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة» (يو٨: ١٢).

يا أحبائي، قد يختفي المسيح عنا بسبب إهمالنا أو كسلنا أو ضعف إيماننا، ولكنه

يعود ويظهر و يتودد، أو يعود ويوبخ وينتهر ويؤدب، هذا أمر محتمل جداً، لأنه يختفي بشخصه ولكن نوره في القلب لا يزال يضيء ويوبخ...

ولكن أن يختفي نور المسيح من القلب ولا يعود للظهور قط هذا أمر غير محتمل. هذا هو الظلام الروحي الذي يتخبط فيه الإنسان ولا يعود يعلم إلى أين يسير!!

اختفاء المسيح عن الذين رفضوه كلية — هؤلاء الذين أحبوا الظلمة أكثر من النور، الذين أحبوا العالم وساروا وراء الجسد — معناه أن كل تعاليم المسيح ووصاياه وآياته ومعجزاته ستصبح عندهم بلا معنى، بلا قوة، بلا تصديق. المسيح حينما يرفع نوره من الضمير، من العين، من القلب، تصبح كل كلماته عندهم بلا معنى!! بل ويصبح لديهم كل الذين ينادون باسمه مكروهين أيضاً، بل مختلين، وغير معقولين، ومدعين!!

أن يرفع المسيح نوره من قلب الإنسان معناه أن الإنجيل كله يصير مرفوضاً غير معقول وغير مصدَّق وليس على مستوى العصر، و بالتالي تختل كل موازين الحق، فلا يعود للإنسان أساس للحق يبني عليه رأيه أو حكمه، ولا يعود الإنسان يعرف الهدف الذي إليه يسير!!

لأن اختفاء نور المسيح معناه انطماس كل معالم الطريق المؤدي إلى الحياة الأبدية: «الذي يسير في الظلام لا يعلم إلى أين يذهب» (يو١٢: ٣٥).

متى يبلغ الإنسان إلى هذه الدرجة؟

«ومع أنه كان قد صنع أمامهم آيات هذا عددها لم يؤمنوا به، ليتم قول إشعياء النبي الذي قاله: **يا رب من صدَّق خبرنا، ولمن استُعلنت ذراع الرب**» (يو١٢: ٣٧و٣٨).

+ «**مَنْ صدَّق خبرنا**»: هذا يشير إلى عمل المسيح بالروح داخل القلب بالكلمة سراً. لأن الإيمان يكون بالخبر والخبر بالكلمة كما يعلمنا الإنجيل، فإذا رفضنا الكلمة، وهي وسيلة مخاطبة العقل الواعي، نكون قد رفضنا الخبر المعلن من الله. وإذا رفضنا الخبر لا يبقى للإيمان أية قاعدة معقولة أو أساس فكري يُبنى عليه.

+ «**لـمَنْ استُعلنت ذراع الرب**»: هذا يشير إلى قوة عمل الله العلنية — وذلك عن طريق المعجزة والآية — أي عمل القوات المنظورة واستخدام الحوادث الظاهرة. وهذه وسيلة مخاطبة اللاوعي بالقوة الخارقة للطبيعة والفائقة على المنطق والقياس العقلي لتفتيح عين الأعمى أو إقامة الميت. فإذا رفضنا وسيلة التخاطب مع اللاوعي انقطع التيار السري الواصل بين القوة السرية الفائقة النابعة من الله وبين مصدر الاستقبال السري داخل الكيان الإنساني.

رفضوا هذا وذاك، «**لهذا لم يقدروا أن يؤمنوا**» (يو١٢: ٣٩)، لأنهم رفضوا الإيمان بالوسائل المنظورة وغير المنظورة، بالمنطق وما فوق المنطق، بالوعي وباللاوعي، فرفضوا نور المسيح القلبي الذي كان يرسله بروحه وكلماته معاً إلى قلوبهم، ورفضوا آياته ومعجزاته التي رأتها عيونهم فلم تصدقها عقولهم: «أعطاهم الله روح سبات وعيوناً حتى لا يبصروا، وآذاناً حتى لا يسمعوا (أعطاهم عيوناً تنظر ولا تبصر، وآذاناً تسمع ولا تعي ما تسمع)» (رو١١: ٨).

فلما رفضت عيونهم آياته: (الحق الفائق المنظور): النور، ولما رفضت قلوبهم كلماته: (الحق الفائق المسموع): الحياة؛ دخلت عيونهم وقلوبهم معاً في الظلام الروحي المعبَّر عنه بـ «**الغلظة**»، وهو تعبير مبسط عن معنى هام جداً وفائق يشير إلى نوع من الكثافة غير الموصلة لحركة أو موجة الروح الشفافة والحساسة جداً التي لا تستقبلها إلا العيون والآذان والفكر ذات الشفافية. وهنا ينشأ عدم التصديق من واقع عمى البصيرة وفقدان الحس الروحي والشفافية في الفكر والضمير معاً، وهكذا لما رفضوا الحق نهائياً وسقطوا دونه بسبب شهوات قلوبهم وعيونهم، رفع عنهم المسيح الحق **كنور وحياة**، أو بالحري امتنع عنهم بإرادتهم المتدنية إلى التراب، فأُغلظت عيونهم وقلوبهم فامتنع شفاؤهم، والشفاء هنا يفيد التوبة الروحية للانتقال من مرض الخطية إلى صحة النفس والروح.

وهكذا يحقق إنجيل يوحنا ما سبق أن وضعه في الأصحاح الأول: «في العالم كان... والعالم لم يعرفه، إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله» (يو١: ١٠و١١). لم يكن

هذا الكلام بالنسبة لليهود فقط، بل ينسحب حتماً بالضرورة على كل من يسلك هكذا، فالأمر لا يزال على نفس المستوى، فالمسيح كل يوم بل كل صباح بل كل ساعة يتكلم **إلى قلوبنا**، إن لم يكن بالكلمة المقروءة أي كلمة الإنجيل التي نقرأها ونسمعها بإرادتنا، فهو يوصلها إلينا بنفسه بالروح في سر من خلال ضمائرنا، كذلك فهو يعلن لنا ذاته بطريقة غاية في الرقة واللطف تنتقل أحياناً إلى طريقة غاية في العنف عندما تثقل عيوننا وآذاننا، وذلك من خلال حوادث اليوم بصورة لا يمكن تجاهلها أو الإقلال من شأنها فما من حادثة إلا ويمكن ترجمتها بلغة الروح إلى مضمون نافع ومفيد.

وهكذا إما أن نقبل الكلمة فتنمو وتزداد و يدخل القلب بواسطتها إلى عمق الحياة مع المسيح، أو نرفضها فيتسلل ظلام الموت إلى كل حواسنا وملكاتنا قليلاً قليلاً. كذلك إما أن نقبل ترجمة الحوادث ونعي المخاطبة السرية التي يتكلم بها الرب من خلالها ونخضع لعمل ذراع الرب، وإما أن نرفض أي تأويل للحوادث المصوبة نحونا وكأنها ليست لنا أو كأننا لسنا لها، فتدخل كل إدراكاتنا ووعينا في محاق الرؤية نحو حياة بلا قيمة ولا معنى!! وظلام القلب يؤدي حتماً إلى «**الغلظة**» أي إلى فقدان القدرة على التقاط موجة صوت الله وبالتالي عدم التصديق والاستهانة ثم الاستباحة بكل حق.

أما ظلام العين فهو الذي يؤدي إلى العمى، أي فقدان التقاط وتحديد معالم الطريق، فيختفي المسيح من أفق الحياة اليومية إلى الأبد، وحينئذ لا يصبح أمام الفكر هدف محدد المعبَّر عنه: لا يعود الإنسان «يعرف إلى أين يسير».

وهذه الحالة لم يقع فيها الذين رفضوا المسيح قولاً وعملاً فقط، ولكن ينبهنا إنجيل يوحنا إلى وضع آخر للرفض يبدو في ظاهره أنه قبول حيث ينهي به إنجيل قداس هذا اليوم(٢)، وفي الحقيقة يُنهي به يوحنا كل خدمة المسيح:

---

(٢) يوم الثلاثاء من الأسبوع السابع من الصوم الكبير المقدس وهو (يو١٢: ٣٦-٤٣).

ومضمونه هكذا: «ولكن مع ذلك **آمن به كثيرون من الرؤساء** أيضاً، غير أنهم لسبب الفريسيين لم يعترفوا به **لئلا يصيروا خارج المجمع، لأنهم أحبوا مجد الناس أكثر من مجد الله**» (يو١٢: ٤٢و٤٣). وهنا يضع إنجيل يوحنا هؤلاء على مستوى من **أحبوا الظلمة أكثر من النور!!** مع أنهم رؤساء علماء وأنهم آمنوا بالمسيح ولكنه يضعهم على مستوى: «من يحب نفسه يهلكها، ومن يبغض نفسه في هذا العالم يحفظها إلى حياة أبدية!!» (يو١٢: ٢٥).

هنا عدم الاعتراف بالمسيح بسبب الخوف أو بسبب الاحتفاظ بمجد الناس يهبط بالإيمان بالمسيح ليجعله على مستوى الجحود والإنكار، الذي تكون نتيجته الحتمية انسحاب النور من قلب الإنسان وفكره، لأن هذا الفصل من الإنجيل مبني على قول المسيح السابق عن حبة الحنطة التي شبَّه نفسه بها وهو قادم على الصليب ليموت، ثم قال مستطرداً: «إن كان أحد يخدمني فليتبعني، وحيث أكون أنا هناك أيضاً يكون خادمي» (يو١٢: ٢٦).

وهكذا يريد إنجيل يوحنا أن يؤكد لنا **أن الإيمان بالمسيح يستحيل أن يتم أو يكمل إلا بالاعتراف العلني، وأن الاعتراف العلني يشمل حتماً موت حبة الحنطة، أي اعتبار أن الصليب جزءٌ أساسيٌّ في إيماننا حتى ينشىء الإيمان بالمسيح حياة أبدية:** «وأما هذه فقد كُتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه» (يو٢٠: ٣١)، أو بمنتهى الوضوح والاختصار: إن الإيمان بالمسيح ينشىء حياة أبدية في حالة واحدة فقط وهي استعدادنا للموت عند إعلاننا الإيمان بالمسيح، أو إعلاننا الإيمان بالمسيح باستعداد الموت!!

فطوبى للذين أصبح إيمانهم إعلاناً دائماً باستعداد الموت في كل لحظة، بل طوبى للذين يموتون كل يوم بالفعل بسبب إعلانهم الإيمان بالمسيح، هؤلاء هم الذين كُتبت أسماؤهم في سفر الحياة.

(١٩٨٢)

لا تقسُّوا قلوبكم

الحياة مع الله إما تُحسب حياة حب أو تُحسب حياة عداوة، فليست شيئاً وسطاً. أما حياة العداوة لله فهي تنحصر في الاهتمام بالجسد فوق الاهتمام بالروح، حيث يقرر بولس الرسول بكل صراحة ووضوح وحزم أن «**اهتمام الجسد هو عداوة لله**» (رو٨: ٧)، وهكذا قد يصل الجسد ـــ أو بمعنى أصح الذات البشرية ـــ بجموحها نحو العالم إلى الدرجة التي تصبح فيها الذات والجسد معاً غريمين؛ بل خائنين لله!

فإذا تيقنَّا أن الحياة حسب الجسد بهذه الصورة مصيرها حتماً هو الموت بلا رجاء أي بلا حياة أبدية حسب قول الكتاب: «**لأن اهتمام الجسد هو موت**» (رو٨: ٦)، أو كما يقول في موضع آخر: «**إن عشتم حسب الجسد فستموتون**» (رو٨: ١٣)، فإن كل هذا يُقلق بالنا جداً من جهة مصيرنا المحتوم:

+ فهل نحن نعيش حسب الجسد أي حسب إرادته ومطالبه ونتحيز لذواتنا وشهواتنا حتى تُصبح أهواؤنا الخاصة ومزاجنا هما المسيطران على سلوكنا؟
+ أو بمعنى آخر نهتم فيما لأجسادنا وأنفسنا إلى الدرجة التي لا يصبح فيها لوصية الله السلطان الكامل على حياتنا؟

هذا يعني مباشرة أن ناموس الخطية يسكن ويعمل برضانا و بلا مانع في قلبنا وفكرنا وأعضائنا، ويسيطر على ميولنا فتنجرف نحو الاتجاهات السلبية الخاطئة والآمال الدنيوية والراحات والكرامات والأمجاد، و بالتالي يصبح مجال أفكارنا مرتعاً لهموم العالم ولكل تصورات شريرة وغير صالحة ولا طاهرة، حيث ينقاد الجسد حتماً بسلطان الغرائز، وتدخل النفس في قبضة الشيطان لتصير عبداً للغضب والحقد والعداوة والحسد والكبرياء والعظمة، تجاهد النفس لتخرج من واحدة فتدخل في الأخرى.

وقد يتبادر إلى الذهن في بادىء الأمر أن الله حتماً سيَرُد على ذلك بأن يسرع في النقمة والتأديب، ولكن تمر الأيام والسنين ولا يحدث ما كنّا نخشاه. وبسبب عدم حدوث ذلك في حياتنا، نظن خطأً أن الله ساكت أو متواطىء أو على الأقل غير غاضب علينا، ولكن هذا وَهْمٌ وخداع يلف حياتنا ليوردها إلى الهلاك. ففي الحقيقة لو عُدنا إلى معاملات الله مع شعب إسرائيل لاكتشفنا أسلوب الله الخطر في هذا الأمر.

فالرب حذَّر، وأنذر، ثم ترك شعب إسرائيل ليختار لنفسه ما يشتهي، فاشتهى الحياة حسب الجسد بكل شهواته وأهوائه. ثم عاد الله من حين لحين ليذكِّر الشعب على يد أنبيائه، معلناً قراره في هدوء أنه شعب عنيد غليظ الرقبة، لم يستفِد من طول أناة الرب، لذلك لن يبرِّئه على مخالفاته واستهتاره، لكن العجيب في طول أناة الله أنه — وبالرغم من كل ذلك — لم يقرر في نفسه أن يفارقه؛ بل ظل يرافقه ويحميه بالنهار والليل، لأن في الحقيقة عدم أمانة الإنسان أو الشعب لا يستطيع أن يُبطل أمانة الله. فالله صالح، وسيظل كذلك، ولكن في هذا الصلاح أيضاً يكمن خطر التأديب. إذ نجد أنه بالرغم من هذا الترفق، إلاَّ أن الله جعل ثمن ترفُّقه وطول أناته، إطالة مُرَّة وقاسية أيضاً لمسيرة الشعب في براري سيناء الموحشة مدة **أربعين سنة**، مع أن الرحلة كانت لا تحتاج لأكثر من أربعين يوماً على أقصى تقدير. وهكذا نعود لأنفسنا لنسأل عن النتيجة الحتمية التي سنواجهها إن نحن قسَّينا قلبنا وانحزنا وراء شهوات الجسد ومطالبه، مع التذمر والشكوى والحنين إلى الراحة والعودة إلى الماضي، هل نريد أن تطول رحلتنا عبثاً؟

لقد أطال الله تيه شعب إسرائيل ومرمر حياته في البرية أربعين سنة بسبب شكواه من الله، وتذمره على حياته اليومية، وحنينه للأكل اللذيذ والشرب المريح (تث ١: ٢٧)، ولم يكن هذا عجزاً من الله؛ فالله كان قادراً أن يخلق لنفسه شعباً بأكمله أكثر طاعة وأكثر أدباً، إذ قال مرَّة لموسى: «اتركني ليحمى غضبي عليهم وأفنيهم. **فأصيِّرك شعباً عظيماً...**» (خر ٣٢: ١٠)

+ إذاً علينا أن ننتبه جداً أن عقاب الله يختبىء دائماً في إطالة التعب والضيق إن

نحن انحزنا إلى مسرَّاتنا دون الله. وقانون الآباء الروحي هو أن التجربة تتضاعف على المتذمرين، فليس طول التيه هو قانون للسفر، وخاصة إن كان على الطريق الضيق وتحت حماية الله وقيادته، فالسَّفَر الروحي السعيد الموفَّق ليس فيه أوقات تضيع في التعطيل أو تُنفَق في الباطل.

إذاً فلننتبه جداً، فالتيه في الطريق علامة أكيدة على خطأ في المسير وغضْبةٍ مكتومةٍ في قلب الله، تحمل خطورة شنيعة لإمكانية حلول نهاية محزنة، فمعلوم أن الله أفصح عن غضبه هذا في النهاية عندما أهلك بالفعل ثلاثة ملايين نسمة، وهو مجموع العدد الخارج من مصر، ولم ينجُ منهم إلاَّ اثنان فقط!! يشوع بن نون وكالب بن يَفُنَّة.

إذاً، فليحذر القارىء أو السامع! يستحيل أيها الأحباء أن نستمر في التيه بلا مبالاة وننتظر أن نصل إلى أرض الميعاد بسلام. فالأمل في ذلك يكون بنسبة شخصين في كل ٣ مليون نسمة أي شخص واحد لكل مليون ونصف نسمة!! حيث هاتان الحالتان أي يشوع وكالب، تُمثِّلان فعلاً أمانة تخطَّت أتعاب المنظور وكل أسباب الضيق ودعوى التذمر.

ثم ينبهنا الرسول بطريق غير مباشر قائلاً: لا تقولوا في أنفسكم إننا اعتمدنا، فشعب إسرائيل اعتمد في البحر الأحمر؛ ولا تقولوا إننا تثبَّتنا كأعضاء في الجسد بالميرون، فشعب إسرائيل اختتن وافتخروا أنهم أولاد إبراهيم الشعب المختار وعبدوا الله وصاروا أعضاء كجماعة متحدة تتراءى أمام الله وفي حضرته في الخيمة؛ ولا تقولوا إننا نأكل جسد الرب ونشرب دمه، فشعب إسرائيل أكل المن السمائي الذي تسمَّى بخبز الملائكة أربعين سنة بلا انقطاع وشرب من الصخرة التي قيل عنها صراحة أنها كانت المسيح. وبالرغم من ذلك كله طُرحت جثثهم في القفر مغضوباً عليهم لأنهم استصعبوا السير وراء الرب بالضيق وكرهوا خبز الكِسَر وعبدوا الرب بالشفاه، أما قلوبهم فكانت مبتعدة عنه (راجع مت ١٥: ٨)، وعملوا ما اشتهته قلوبهم فأغاظوا العلي وتذمَّروا عليه ليل نهار (١ كو ١٠، مز ١٠٦).

هذا كله يكشفه لنا الكتاب بمنتهى الدقة والوضوح، ويكشف عن مدى الخطورة المحدقة بإنسان أو شعب يعطي الله القفا دون الوجه.

+ فالكتاب يؤكِّد أن هناك حياتين وعبادتين: حياة وعبادة حسب الجسد، وحياة وعبادة حسب الروح. الأُولى للموت المحقق، والثانية للحياة بوعد؛ والعبادتان متشابهتان تماماً في الشكل والطقس والواجبات والأعمال، ولكن لا يفرقهما إلاَّ القلب، أي الداخل المكشوف فقط لله بعمل الروح.

+ فإما عبادة مخادعة لحساب الجسد، وإما عبادة بالروح صادقة وأمينة لله، ولا يمكن الجمع بينهما.

ومعروف ومتيقَّنٌ تماماً أن أية حياة مسيحية لا تكون صادقة وأمينة للروح القدس لا يكون المسيح حيًّا أو فعَّالاً فيها: «مَنْ ليس له روح المسيح فذلك (أي المسيح) ليس له» (رو ٨: ٩).

أما الحياة في المسيح بالروح القدس فلها شهادة، ولها قوة، ولها ثمار لا تخفى ولا تُعانَد. لذلك وعلى هذا الأساس يشجِّعنا القديس بولس الرسول: «**اسلكوا بالروح فلا تكمِّلوا شهوة الجسد**» (غل ٥: ١٦).

والآن ماذا نصنع أيها الإخوة ونحن في موسم مقدس يدعو ليقظة الروح؟ لنعش بالروح وليس بالجسد، لنحيا بروح المسيح في خوف الله في قناعة الضمير وشكر النفس وفرح الروح، ضابطين الجسد في كل شيء: «لأنه إن كنتم تميتون أعمال الجسد فستحيون» (رو ٨: ١٣)، حتى نثمر ثمار البر والقداسة ونتغيَّر عن شكلنا بتجديد أذهاننا، ولا نجعل تدبير الجسد ومكاسبه هي كل ثمارنا التي هي من التراب وإلى التراب سوف تعود.

يوجد موت للهلاك، ويوجد موت للحياة:

كان لابد أن يموت الشعب الخارج من مصر لأنه عاند الله واستهان بالمواعيد، هذا هو قانون الروح والخلود، أن يَفنى كل مَنْ استهان بالقدوس وازدرى بوعود الله وبدعوة

العبور ممسوكاً من شهوة قدور اللحم ومسرات الجسد وعبودية الراحة، وهذا هو الهلاك الأبدي!!!

أما دعوة الروح الجديدة التي يقدِّمها لنا المسيح على مستوى آلامه وصليبه فهي: أن نموت بالروح عن كل شهوات الجسد وأعماله وذلك بإرادتنا نحن، ضابطين كل أهوائه وشهواته وأعضائه العاملة فينا للعصيان والتمرد وإغضاب الله، لكي تتشكَّل فينا صورة المسيح الذي يتحتم أن نكون مثله، لننال فيه ومعه وعد الحياة. هذا هو الموت الإرادي أو الإماتة بالروح التي ينبغي أن نموتها كل يوم لأن هذا الموت هو هو الحياة عينها التي تحوي الفرح الأبدي والسلام الذي لا يُنزع منا: «كُنْ أميناً إلى الموت فسأعطيك إكليل الحياة» (رؤ ٢: ١٠)، فالجهاد اليوم موضوع أمامنا والإنجيل يدفعنا دفعاً لسلوك هذا الطريق السري: «لم تقاوموا بعد **حتى الدم** مجاهدين ضد الخطية» (عب ١٢: ٤).

وفي هذا الصدد نقرأ معاً فصلاً ممتعاً من الرسالة إلى العبرانيين:

+ «لذلك كما يقول الروح القدس **اليومَ إن سمعتم صوته فلا تقسُّوا قلوبكم** كما في الإسخاط يوم التجربة في القفر، حيث جرَّبني آباؤكم، اختبروني وأبصروا أعمالي أربعين سنة. لذلك مقتُّ ذلك الجيل وقلت إنهم دائماً يضلُّون في قلوبهم ولكنهم لم يعرفوا سبلي. **حتى أقسمت في غضبي لن يدخلوا راحتي.** انظروا أيها الإخوة أن لا يكون في أحدكم **قلب شرير بعدم إيمان في الارتداد عن الله الحي.** بل عظوا أنفسكم كل يوم ما دام الوقت يُدعى اليوم، لكي لا يُقسَّى أحد منكم بغرور الخطية. لأننا قد صرنا شركاء المسيح إن تمسَّكنا ببداءة الثقة ثابتة إلى النهاية. إذ قيل **اليومَ إن سمعتم صوته فلا تقسُّوا قلوبكم** كما في الإسخاط. فمَنْ هم الذين إذ سمعوا أسخطوا؟ أليس جميع الذين خرجوا من مصر بواسطة موسى؟ ومَنْ مَقَتَ أربعين سنة؟ أليس الذين أخطأوا الذين جثثهم سقطت في القفر؟ ولمَنْ أقسم لن يدخلوا راحته إلاَّ للذين لم يطيعوا. فنرى **أنهم لم يقدروا أن يدخلوا لعدم الإيمان.**

فلنخف أنه مع بقاء وعد بالدخول إلى راحته يُرى أحد منكم أنه قد خاب منه» (عب٣: ٧-١٩؛ ٤: ١).

لاحظوا هنا أن الكلمات تحذيرية وخطيرة جداً، فإذا استهنّا بها أو قلّلنا من قوتها وخطورتها فإنها تنشىء حالة عداوة تجاه المسيح؛ بل حالة غضب إلهي لا يمكن فكّها أو التخلص منها.

يقول بولس الرسول مردّداً صوت الروح القدس: «يقول الروح القدس **اليومَ** إن سمعتم صوته (أي صوت الروح القدس في القلب) فلا تقسُّوا قلوبكم». أليس هذا اليوم هو كل يوم ما دام الوقت يُدعى وقتاً؟ وهنا يُعطى المثل: «كما في الإسخاط يوم التجربة في القفر حيث جرَّبني آباؤكم». يُلاحظ هنا أن الرب يضع الشعب المعاند موضع مَنْ يجرِّب الرب عمداً، حيث يقول الروح أن علّة القساوة التي أصابتهم كانت بسبب أنهم **استهانوا** بقيادة الله ووعوده، وانصبَّت هذه الاستهانة حول ملذات الخطية وشهوات البطن وراحة الجسد التي أنشأت قساوة ضد الله نفسه!!

+ والآن ماذا كان ثمن هذه الاستهانة بالله والانحياز إلى شهوات الجسد والنفس؟ النتيجة كانت مشئومة حقاً إذ يقول الكتاب: «لذلك **مقتُّ** ذلك الجيل،... **يضلون في قلوبهم (بإرادتهم)،... لم يعرفوا سبلي... حتى أقسمت في غضبي لن يدخلوا راحتي»** (عدد٢٤: ٢٠-٢٣).

وهكذا نجد أنه قد تسجَّل لنا هذا المسلسل المشئوم حقاً لتحذيرنا. فشهوة الخطية واللذة والراحة ولدت استهانة بتحذيرات الله عامة، والاستهانة ولدت قساوة، والقساوة ولدت ضلالة وعدم معرفة، والختام كان غضب الله والحرمان من الراحة الأبدية.

وحالة إسرائيل لم تُكتب للتاريخ وحسب؛ بل يقول بولس الرسول مؤكّداً أنها «**كُتبت لإنذارنا**» (١كو١٠: ١١)، «**فلنخف نحن**» (عب٤: ١)، «**ملاحظين لئلا يخيب أحد من نعمة الله...**» (عب١٢: ١٥).

لأن نتيجة الاستهانة بالله هي حتماً وفي كل جيل وعلى أي حال تنتهي **بتملُّك** الخطية!! وثمن الخطية موت.

عدم الإيمان ينتهي بالارتداد عن الله الحي:

وهذا يشرحه الروح القدس أنه بسبب **سُكنى الخطية في القلب**؛ علماً بأن قبول الشر في القلب **يُفقِد الإنسان الإيمان والثقة بمواعيد الله**. لأن القلب حينما يتقسَّى ينصد عن الروحيات عموماً. والنتيجة أن القلب يزداد كل يوم قساوة أكثر بسبب انجذابه لغرور (خداع) الخطية أكثر فأكثر. **فعملية تقسية القلب** تزداد بالتمادي في الخطية، وتنتهي بالارتداد عن الله الحي.

«فنرى أنهم لم يقدروا أن يدخلوا **لعدم الإيمان**». فالدخول إلى أرض الميعاد كان يحتاج إلى الثقة في مواعيد الله السابقة والتمسك بالإيمان مهما كانت الأمور صعبة ومستحيلة، وهذا ينطبق تماماً على دخولنا نحن الملكوت.

يا أحبائي إن أعظم خطية تنجح في تخريبها للنفس تماماً، هي عدم الإيمان بمواعيد الله!! وهي التي تولِّد الاستهانة بتحذيرات الله.

فالصمم الروحي الذي أصاب هذا الجيل والانصداد عن سماع كلمة الإنجيل والخوف من الوصية، قد ولَّد استهتاراً، والاستهتار هو المجال الذي تنشط فيه كافة أنواع الخطايا، والخطية تولِّد قساوة في القلب، والقساوة تهزأ بالإيمان وكل مفاهيم الروح ومواعيد الله. لذلك فعدم الإيمان هو هو عداوة لله، المعبَّر عنه بالارتداد عن الله الحي: «وإن ارتدَّ لا تُسر به نفسي» (عب١٠: ٣٨).

أكل اللعب:

يعود بولس الرسول يذكّرنا في موسم الصوم هذا بخطية يسقط فيها كثير من الأفراد والجماعات وحتى بعض الأشخاص المعتبرين:

+ «فلا تكونوا عبدة أوثان كما كان أُناس منهم كما هو مكتوب جلس الشعب **للأكل والشرب** ثم قاموا للعب (كلمة «اللعب» هنا حسب الترجمة العبرية

تفيد المداعبة بالأمور الجنسية والهزار القبيح»، ولا نزنِ كما زنى أناس منهم فسقط في يوم واحد ثلاثة وعشرون ألفاً» (١ كو١٠: ٧و٨).

نلاحظ هنا أن الروح القدس يصوِّب السهم نحو ما يحدث في وسطنا وعلى موائدنا وبلا حياء، لأكل اللذة والمسرة والضحك والمزاح، جلوس لملء القلب بكلمات الهزل والقباحة بإحساس إشباع غرائز مسيَّة خفيَّة؛ ليس هذا جلوس أكل، ولا هذا أكل شبع؛ بل هو الذي يقول عنه بستان الرهبان: "لم آكل خبز الشهوة".

كل جلوس للأكل بقصد مثل هذا هو بخور مقدَّم للشيطان، هو عبادة أوثان كما يقول الإنجيل، وهو حتماً يحمل رائحة الزنا. هنا التحذير الحزين للروح القدس الذي جاء على فم بولس الرسول لأهل كورنثوس: «لكن بأكثرهم لم يُسر الله لأنهم **طُرحوا في القفر. وهذه الأمور حدثت مثالاً لنا حتى لا نكون نحن مُشتهين شروراً كما اشتهى أولئك**» (١ كو١٠: ٥و٦).

يا أحبائي، الأكل في التقليد الآبائي جزء أساسي في العبادة، فهو إما بالشكر والصلاة لتمجيد الله ويكون الله حاضراً بالفعل، وإما بالشهوة واللذة والهزار لإرضاء الشيطان.

هذا هو أكل اللعب! جلس الشعب للأكل والشرب وقاموا للعب، والنتيجة زنا؛ وسقط ثلاثة وعشرون ألف قتيل.

لا نُجرِّب المسيح:

في سفر العدد (٢١: ٤-٩) يقول: «فضاقت نفس الشعب في الطريق. وتكلَّم الشعب **على الله** وعلى موسى قائلين: لماذا أصعدتمانا من مصر لنموت في البرية لأنه **لا خبز ولا ماء وقد كرهت أنفسنا الطعام السخيف**». لقد أسمى الشعب الخبز الجاف واللون الواحد من الطعام بكلمة «**سخيف**»، حيث لم يعُدْ خبزاً طرياً لذيذاً مثل الخارج من أفران مصر، ولا الماء عذب كنيل مصر. خطية الشعب هنا التي يركِّز عليها الكتاب هي النظرة للوراء إلى أيام الراحة والقوة والغنى والشباب، وهيهات،

وكل الجري وراء ما فات سراب في سراب، والنظرة إلى الوراء تنتهي بنا حتماً إلى الانحصار والتذمر واللعنة!! ما أجملك يا سدوم عند الجهال! وما أعظمك يا عمورة عند الأغبياء! **هذه هي تجربتنا للمسيح عندما نقيس أنفسنا على غيرنا أو على ماضينا وأيام راحتنا فنتذمر** قائلين: «ضاقت نفسي» من المشقة، «كرهت نفسي» الصوم، مالي وهذا الطعام السخيف.

لاحظوا يا أحبائي أن المسيح نفسه يُكنى عنه **بالطريق**، والعجيب أن الطريق إلى السماء هو ضيق حتماً بسبب حتمية الصليب، فلا يوجد إيمان بالمسيح بلا صليب، وليس صليب بلا آلام وظلام، والفرح بالمسيح هو بعينه الفرح بالصليب حينما يُحمل بشجاعة ويُحمل جيداً وبافتخار، وإلا يكون الفرح كاذباً، كفرح الأكل واللعب!!

كذلك فإن المسيح يُكنى عنه أيضاً بالخبز أي **الطعام**، والعجيب أنه بعينه **الطعام الممزوج بالمرارة** الذي كان يؤكل قديماً على أعشاب مُرَّة!! ولم تزل صورة المرارة الحزينة ممزوجة به لا تفارقه سواء على الصليب أو على المذبح، فالجسد يُؤكل «**مكسوراً**» والدم يُشرب «**مسفوكاً**»، تعبيراً عن قمة الألم والتعذيب وبلوغ الظلم حتى الدم!!

إذاً فنحن في خطر من أن نقع في نفس خطيئة شعب إسرائيل، أي تجربة المسيح، إذا استثقلنا الإيمان بالإله المصلوب!! أو تنكرنا للمسير وراءه حتى الجلجثة في موكب الاحتقار والمهانة والرذل، أو عافت أنفسنا الضيق والتعب أو الاضطهاد، من أجل اسمه، أو حمل نير الصوم الذي يحمل في طياته إنكار ملذات الجسد.

يا أحبائي، يلزمنا أن ننتبه إلى شدة التشابه بيننا وبين حالة شعب إسرائيل السائر في التيه وراء موسى في أراضٍ قفرة مرعبة قاحلة، لا راحة فيها، لا خضرة ولا جمال ولا سلام ولا أمان ولا طعام ولا شراباً لذيذاً، الأمر الذي كان — إلى حد ما في تصورنا — **يجيز لهم التذمر**... فلم يُجزه لهم الله!! فكم بالحري نحن الذين أُعطي لنا أن نسير

وراء المسيح في برية هذا العالم بقوة الروح و بتعزيات النعمة وأسرار لا تُحدّ، حتى ولو كنا محاطين بنفس الضيقات والآلام والحرمان، فقياساً على نفس التجربة لا يمكن أن ننجو إن أهملنا خلاصاً هذا مقداره، واستثقلنا مسيرة الصليب، ورفعنا قلوبنا وعيوننا نحو الراحات والمسرات والمجد الدنيوي والمراكز العليا والمدن الجميلة!! وعافت أنفسنا الضيق والصوم أو التعب، وتوهَّمنا أنه بعد ذلك يمكننا أن نبلغ الملكوت المعد والراحة العليا.

لهذا لا ينبغي التفريق بين النهاية المحزنة التي بلغها الشعب المتذمر السائر وراء الله في البرية، و بين الذين يسيرون وراء المسيح الآن وهم حاملون قلوباً متذمرة طالبين العيش الرغد، رافضين ضريبة الملكوت الحتمية التي وُضعت علينا «**أنه بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت الله**» (أع ١٤: ٢٢)، «**وجميع الذين يريدون أن يعيشوا بالتقوى... يُضطهدون**» (٢تي ٣: ١٢).

ولكن فلنحذر، لأنه كما أرسل الله الحيَّات المحرقة أي المميتة تأديباً لإسرائيل جزاء كل مَنْ تذمر على الرب مستثقلاً **المسير** في الطريق وعاف ــ حسب قولهم ــ **طعام السفر «السخيف»**، هكذا يقف الشيطان رمز الحية نفسها المحرقة والمميتة يبتلع الرافضين السير في موكب الصليب بالصبر والاحتمال والفرح، أما الذين عافت نفوسهم خبز الضيق فكيف يؤهَّلون لخبز الحياة؟

«ولا تتذمروا كما تذمَّر أيضاً أُناس منهم فأهلكهم المهلك» (١كو ١٠: ١٠):

كان تذمر شعب إسرائيل نوعاً من الخداع، فقد أغواه جواسيس الأرض الذين جاءوا وأخبروهم أخباراً ليست من الإيمان في شيء. إذ قالوا للشعب أن أرض كنعان التي أنتم ذاهبون إليها تأكل سكانها!! وأننا بالنسبة لهم كالجراد وهم عمالقة، «فأشاعوا المذمة على الأرض»، وهكذا خوَّفوا الشعب وأرعبوهم، فبكى الشعب تلك الليلة على موسى وعلى هارون: «ليتنا متنا في أرض مصر... ولماذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف. تصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة... فقال بعضهم لبعض نقيم رئيساً ونرجع إلى مصر» (سفر العدد الأصحاحان ١٣و١٤).

وهكذا حسب الله للشعب نيَّة الرجوع من ورائه أنها خيانة وتذمُّر، وحُسبت أخبار الجواسيس الذين أُرسلوا ليتجسسوا الأرض الذاهبين إليها أنها إشاعة مذمَّة.

والعجيب، أنه لما وقف يشوع بن نون وكالب بن يَفُنَّة ــ وهما كانا ضمن المبشرين بأخبار أرض الميعاد ــ ليُشجِّعوا الشعب و يطمئنوه أن الرب معنا: «إن سُرَّ بنا الرب يُدخلنا إلى هذه الأرض... لا تتمردوا على الرب ولا تخافوا»، كان رد الفعل المحزن أن هَمَّ الشعب ليرجم يشوع وكالب لولا تدخل الرب السريع إذ «ظهر مجد الرب في خيمة الاجتماع لكل بني إسرائيل. وقال الرب لموسى حتى متى **يهينني** هذا الشعب وحتى متى **لا يصدقونني** بجميع الآيات التي عملت في وسطهم».

لاحظوا هنا أن عدم تصديق الرب فيما سبق وعُمِلَ من آيات مع آبائهم، يُحسب شهادة ضدهم إذا هم لم يأخذوا بها ويعتمدوا عليها ويثقوا فيها ويسيروا بمقتضاها بلا خوف أو انزعاج. ولكن انفلات الشعب وراء المرجفين والمزعجين أنزل سخط الله على الشعب كله!! «**هذه الجماعة الشريرة المتذمِّرة عليَّ... هذه الجماعة الشريرة المتَّفقة عليَّ**» (عدد ١٤: ٢٧و٣٥).

وكان العقاب: سنة تيه في القفر مقابل كل يوم تذمُّر (عدد ١٤: ١٣). «**فتعرفون ابتعادي**»، لأنه كانت مدة التيه فعلاً أربعين سنة!!! وكانت فترة التجسس أي اختبار وعد الرب في أرض الخيرات أربعين يوماً التي لا يزال يمثِّلها الصوم الكبير الذي فيه نذهب فنتجول بأرواحنا فيما أعد لنا الله من ميراث ومُلك، ونتحسس فيه صدق وعود الرب.

أما كل الذين أنكروا صدق مواعيد الله وأشاعوا المذمة بين الشعب، فماتوا بالوباء أمام الرب في الحال (عدد ١٤: ٣٧).

واضح من قول بولس الرسول أن هذه الأمور حدثت مثالاً لنا حتى لا نتذمَّر كما أولئك أيضاً!! بسبب ضيق الأيام أو شدة التجارب. والتذمر على الله كما يتضح من أقوال الكتاب لا علاج له ولا شفاء منه. «الذين رأوا مجدي وآياتي... وجرَّبوني ولم

يسمعوا لقولي... حيٌّ أنا... أن كل الأرض تمتلىء من مجدي... وجميع الذين أهانوني لا يرونها» (عدد ١٤: ٢٢و٢٨و٢٣).

فالرب الذي افتتح السموات بصليبه ودخل كسابق من أجلنا وعليه جروحه، هو نفسه الضامن لوصولنا مهما بدت الرحلة شاقة وامتدَّت بنا أيام الغربة وطالت في أرض الشقاء، وما ألذ اللقمة اليابسة أثناء رحلة طويلة. وإذا كنت مضروباً بداء افتخار المعيشة أو بالشهوة أو الزنا، فخذ لك لقمة من على مائدة الصوَّامين.

(مارس ١٩٨١)



التطهيرات

«ومن خطيتي طهرني» (مز٥١: ٢).
«وكل من عنده هذا الرجاء ففيه (في المسيح) يطهر نفسه» (١يو٣: ٣).

+ النفس التي تيقظت للحقيقة الإلهية لأول مرة، فإنها تستجيب للحق دائماً إستجابة عميقة شاملة، تدفعها محبة مفرطة نحو مخلِّصها، وإعجاب شديد بعالم الروح والروحيات.

+ دخول النفس في الحقيقة الإلهية، يرفعها لمستوى تذوق الحياة الأخرى مع المسيح، ويهبها قدرة على رؤية الطريق وامتداده الطويل ومتطلباته، كما يهبها عزماً صادقاً لقطع هذه المسافة الروحية المطلوبة وقدرة على إيفاء كل شروطها مهما كلفت هذه الشروط النفس من تضحية... هذا الشعور هو أساس مرحلة التطهير.

+ بداية مرحلة التطهير تظهر كعمل سلبي محض، إذ لما يكتشف الإنسان دنيا الأوهام والخطايا والشرور والملذات التي كان يحياها، يبدأ الإنسان يتحرك ضدها في كل المجالات سواء بالتفكير أو الشعور أو العمل، فتبدو حياته سلسلة محتمة من الحركات والإنفعالات المضادة لحياة الخطيئة، كإنسان يخرج عن ذاته القديمة كلية وعن كل ما يمت إليها بصلة...

+ الذي يساعد الإنسان على اتجاهه ضد ذاته في بداية مرحلة التطهير هو المعرفة بحديها الموجب والسالب، أي معرفة الحق في شخص يسوع المسيح كصورة مُثلى للسلوك الطاهر المقدس، ومعرفة الذات في وضعها الغاش المزيف المستعبد لأخطاء وعيوب ومثالات كاذبة. فلا يعود الإنسان يلوم العالم أو الآخرين، إذ يكون قد تيقن أن مصدر العيب والإنحراف كائن في نفسه. وبذلك لا تستطيع النفس أن تتهرب من ظلمة

واقعها إزاء نور الحقيقة المنعكس من وجه يسوع المسيح والمسلَّط علينا في الداخل «هو الذي أشرق في قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح» (٢كو٤: ٦).

+ بمجرد أن تعي النفس حقيقتها الكاذبة وانحرافها وتضع على نفسها وحدها مسئولية كل أخطائها وعيوبها، تبدأ مرحلة التطهير الإيجابية وتبدأ النفس تستنير بمعرفة المسيح وتتحرك نحو النور بحركة تلقائية جديدة هي هي النعمة.

+ عندما تبدأ النفس تتحرك نحو النور، تشعر أكثر فأكثر بثقل قيودها والسلاسل التي تربطها بالعالم المادي، وتتضايق جداً من سجنها الضيِّق الذي انحبست فيه بإرادتها. وحينئذ تتطلع إلى الحرية والإمتداد واللانهائية، وتجد في شخص الرب ملجأها الوحيد الذي ينقذها من ورطتها ومحدوديتها الضيقة الميتة.

+ كل حركة نحو المسيح هي في الواقع امتلاك للحق والنور والحياة. وهي لا يمكن أن تتم إلا بعملين: **الأول** إيمان بمصدر الحق والنور والحياة، **والثاني** جهاد ضد الخطيئة والباطل. وكل من العملين يشدد الآخر و يدفعه منذ اللحظة الأولى التي يشرق فيها حق الله على النفس...

+ إدراك النفس لحقيقة حالتها على نور وجه المسيح ووضعها كل اللوم على ذاتها فيما هي فيه من انحراف وضعف وخطيئة، وتقبُّلها كل الظروف المعاكسة كجزء من خطة العناية الإلهية لتكميل تحريرها وتطهيرها، يصبغ النفس بصبغة حقيقية من الإتضاع والوداعة.

+ صبغة النفس بالإتضاع والمسكنة (بدون اصطناع) وضع ملازم لمرحلة التطهير لا يفارقه، كبرهان حي صادق أن النفس تستمد تطهيرها من رؤية مستمرة لمصدر الحق والخضوع له، لأن نور الحق يكشف باستمرار ضعفات النفس، فيجعلها دائماً في حالة اتضاع.

+ لذلك، فالتطلُّع الدائم إلى شخص الرب يسوع وكشف النفس على نور كلمته

هما ضمان لغسل النفس من كبريائها.

+ كل مرة يحدث فيها مواجهة عملية صريحة تتم بين حق المسيح والإنجيل وبين النفس، تخرج النفس منها وهي محمَّلة بحسرة ومرارة على حالتها مع عزمة لمتابعة التوبة بنشاط وقوة، لا من جهة الفكر والقلب فقط بل ومن جهة كل كيان الجسد والروح حتى يصير الإنسان كله ملتهباً بنار الإشتياق لأن يكون في حالة قداسة ترضي الله.

+ هذا الشعور الطاغي الذي يجتاح الإنسان ويجعله في أشد الحاجة إلى القداسة لإرضاء قداسة المسيح، هو الذي يدفعه لركوب أصعب وأشق أنواع الجهادات والنذور والتخليات والفقر وكل أعمال النسك الشاقة.

+ هذا الشعور بالنهم الفائق نحو القداسة النابع من الحب الملتهب نحو شخص الرب، يجعل كل شهوات العالم والجسد ومسرات الحياة الأرضية ميتة بالنسبة لقلب الإنسان وعينيه وحواسه، وكلها مجتمعة لا تستطيع أن تثنيه عن حركته الملتهبة نحو المسير في طريق القداسة وممارسة أشق أعمال الصوم والوحدة والصلاة... والقيام بأحقر الواجبات والخدمات... وهكذا يقلب الإنسان عوائده القديمة و يقطع كل قيوده، و ينطلق في طريق الله بدون خطة.

+ بسبب هذه الحرارة التي لا تخمد داخل النفس أثناء مرحلة التطهير، تجرؤ النفس على إتيان أعمال تظهر للذين لم يجوزوا بعد هذه النار كأنها غير معقولة وفائقة على طبيعة الإنسان فلا يصدقونها، كما تبدو للبعض الآخر أنها غير لازمة أو مغالاة وتهوراً وعدم رزانة، أو أنها تعالٍ وكبرياء. والحقيقة أن الذين يقومون بهذه الأعمال لا يأتونها عن اصطناع أو كخطةٍ أو تدريب أو استعراض، إنما هي تعبير اضطراري تجوزه النفس وهي مدفوعة بالحاجات داخلية وحرارة طاغية لا تقوى أن تصدها أو تردها. وهم معذورون فيما يأتونه من أعمال تظهر أنها تفوق حدود التعقل والرزانة. فأي عقل يستطيع أن يلجم فعل النار القلبية لما تضطرم بحب الله...

+ العلامة التي توضح أن أعمال التطهير تسير في وضعها الروحي المستقيم هي

السهولة والإندفاع والمسرة التي تواتى الإنسان عندما يقوم بتأدية أعمال النسك والتطهير من صوم وصلاة ووحدة وخدمة وبذل، بحيث أن أي ثقل أو تراخ يكون بمثابة إنذار أن النفس فقدت رؤيتها المقدسة وأنها دخلت في غمامة مظلمة فصلتها عن حبيبها مصدر النور والحب والقوة والبذل والإلهام...

الإهمال والكسل (بدون داعي المرض) في تأدية أعمال التطهير، نذير أن النفس بدأت تعطف على ذاتها وتدور حول نفسها...

+ دخول الإنسان في حالة حب حقيقي مع المسيح يجعله يجد في أعمال النسك والتطهير، حتى الشاقة منها بما فيها من خسارات وآلام ومحقرة، مصدر فرح ومسرة ونعيم لا يفترق عن إحساسه بملكوت الله نفسه وكأنها مواهب وإنعامات!...

+ هذا الفرح والحب الممزوجان بأعمال التطهير يجعل من هذه المرحلة حياة روحية قائمة بذاتها يتمنى الإنسان أن لا تنقطع، وكثير من القديسين اشتهوا أن يبقوا في مرحلة التطهير كل أيام حياتهم، فصار لهم ما اشتهوا وأصبحت سيرتهم كلها أعمال تطهيرٍ ونسكٍ وتوبة، أليست هذه هي القداسة بعينها؟

+ ليس هذا معناه أن حياة التطهير كلها فرح وكلها نور ورؤ يا، فلابد من نكسات ترتد فيها النفس إلى ذاتها وتعاني هجراناً من الله وظلمة، وتذوق أياماً من الجفاف والقلق حتى درجة الإختناق، حيث تواجه ذاتها وتدرك أنها عدم وتراب ولا شيء، فتُضغط بآلام مُرَّة وبالأخص عندما يطول هجران الله لها، ولكن الحب يستعذب الهجران.

+ كذلك أيضاً قد تميل بعض النفوس النقية، حتى وهي في أوج حرارتها ونشاطها ونسكياتها، إلى روح الحزن والكآبة بسبب كثرة تطلُّع النفس إلى عجزها، فيبدو الإنسان كئيباً متأوهاً كثير الأنين... ليس هذا روح يأس أو ابتعاداً عن مضمون الخلاص، بل هو نوع من طغيان الحب الإلهي يجرف أمامه كل المشاعر حتى الجيد منها، ولا تملك النفس إزاءه إلا أن تتأمل تأملاً متواصلاً في عجزها وقصورها الشديد

وهي تحترق حباً، وكأنها مخطوفة برؤ يا باطنية تنكشف فيها حقيقة عجزها على الدوام.

وهنا لا يليق أن تُلام مثل هذه النفوس القديسة أو يُظن بها سوءٌ، فهذا لون من النفوس القادرة على بلوغ أعلى حالات الحب الإلهي وأعمق درجات التوبة والنقاء الداخلي، ووسيلتها المثلى هي إلقاء الملامة باستمرار على ذاتها، واستنكار أخطائها وانحرافاتها، ودوام انسحاقها وانكسارها، الذي يقودها إلى شفاء ذاتها من كل الأوجاع، وإلى دوام نموها في القداسة والحب الإلهي «لي أنا الأصغر من أصغر(٥) جميع القديسين أعطيت هذه النعمة...» (أف٣:٨). ولكن حينما يصطنع الإنسان هذا المنهج لنفسه و يكون غير مقتنع به ولا متهيئاً له، فقد تتعرض النفس إلى أسوأ حالات اليأس والمرض حيث تفقد قدرتها على النمو وتهبط طاقتها إلى الحضيض...

+ وعلى أي حال، ففي مرحلة التطهير يضطر الإنسان كثيراً بدافع فائق على إرادته أن يدخل إلى أعماق نفسه و يواجه قصوره وعجزه، و يذوق طعم الحزن والأنين على فرص الحياة التي أضاعها في الخطيئة والفتور والكسل والإنحلال. و بقدر ما يدوم هذا الشعور، يليق بالإنسان أن يتابعه دائماً بالتطلُّع إلى وجه يسوع كما في مرآة و يتقبل إلهاماته.

+ الإنسان الذي يعبر الطريق، عليه أن يكون شديد الحساسية والإفراز الروحي لإلهامات النعمة وتوبيخات الحق الإلهي الذي يقنع النفس و يلح عليها لمباشرة أعمال النسك. فمثل هذه الدعوة الملحة من النعمة يتبعها دائماً معونة فائقة وحرارة واستنارة وتوجيه حتى النهاية. وخسارة عظيمة أن يغفلها الإنسان بسبب عدم إحساسه الباطني وإفرازه لنداء الله، في حين أن العمل الذي يقترحه الإنسان لنفسه، تعوزه هذه المعونة والقوة، لذلك فهو يحتاج منه إلى تغصب شديد وجهاد مرٌّ للمثابرة. وقد يبتدىء الإنسان بما يقترحه لنفسه ثم لا يقوى على الإستمرار فيه... أما اقتراح النعمة ودعاء المسيح لمسيرة القداسة فتتبعه قوة.

(٥) معنى الكلمة في اللغة اليونانية يفيد تضعيف المسكنة والضعف.

+ لو نظرنا بالعين البشرية المجردة إلى أعمال النسك التي قام بها القديسون في مراحل تطهيرهم، لأصابنا الهول والجزع ولأحسسنا أننا غير مهيئين لشيء منها. ولكن لو أدركنا أن الذي قادهم إلى هذه المناهج النسكية والأعمال الصعبة ليس فكرهم ولا شهوتهم ولا مشوراتهم، وإنما هو الروح الخفي وإلحاحات الحق والحب الإلهي الذي أضاء الطريق أمامهم وشجعهم وقواهم حتى أكملوا طريقهم وانتصروا انتصارهم الباهر على كل قوات العدو وإغراءات العالم، حينئذ نستطيع في جرأة أن نأخذ مكاننا في الصف وننتظر نفس المعونة ونفس القوة ونفس النور لنسير في إثرهم حاملين نفس راية جهادهم وسر نصرتهم.

+ لكي نغلب شهوات قلوبنا وإلحاحات غرائزنا، نحتاج إلى قوة أعلى وأعمق من القوة التي تغذي شهواتنا وغرائزنا، أي أننا نحتاج في جهادنا الروحي على طول مرحلة التطهير قوة فائقة للطبيعة بلا شك، لأنه يستحيل أن نغلب أنفسنا بأنفسنا... هذه القوة الفائقة للطبيعة هي قوة المحبة الإلهية النارية التي تضطرم في قلب الإنسان فتجعله يصنع المعجزات. حبنا للعريس السمائي يمدنا بإيمان وعزيمة وقوة فائقة للعقل الطبيعي، وقادرة أن تطأ كل شهوة وغريزة...

اضطرام المحبة بتأجج حقيقي كنار داخل القلب هو الوسيلة الوحيدة التي تسمو بالألم إلى مستوى اللذة، بل والموت إلى مستوى الربح، والإهانة إلى مستوى الموهبة. لذلك فهذه النار هي غذاء النفس المختار أثناء مرحلة التطهير وبه تستطيع أن تأخذ القوة السرية اللازمة لعبور عجزها ومقاومة العالم بنصرة مؤكدة.

+ المسيح ضرورة حتمية لمسيرة القداسة، تحسها النفس عندما تقترب إليه وتخاطبه، فتجد فيه لذتها ونارها التي تعيش عليها وتغتذي منها. وبقدر ما تستطيع في جرأتها أن تتطلع إليه وتأتلف به، بقدر ما يدوم سموها وتبلغ غايتها.

(مارس ١٩٧٤)